علي أبو دهن

عائد من جهنّم

ذكريات من تدمر وأخواته

Political Detainees in Syria
The Association of Former Lebanese
جمعية المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية

أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

الجديد
Al-Jadeed

بيضاء في الأصل

علي أبو دهن

عائد من جهنّم

ذكريات من تدمر وأخواته

The Association of Former Lebanese Political Detainees in Syria
جمعية المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية
أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research
الجديد
Al-Jadeed

جمعية المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية
جميع الحقوق محفوظة
www.flpdinsyria.com | ٠٣/٦٠١٧٧٦

دار الجديد، ١٨٤، شارع سبيرز، الصنائع ـ بيروت
الطابق الخامس، شقة ٥٢، ٠٠٩٦١ ١ ٧٣٩٨٥٠

أمم للتوثيق والأبحاث، تشرين الأول ٢٠١٢
هاتف: ٠١/٥٥٣٦٠٤ | صندوق بريد: ٥٢٢٢ ـ ١١
بيروت لبنان
www.umam-dr.org
Documentation & Research

Federal Republic of Germany
Foreign Office

إن الآراء الواردة في هذه الشهادة تعبّر، حصراً، عن وجهة نظر مؤلفها وأمم للتوثيق والأبحاث. من ثَمّ فهي لا تعكس بأي شكل من الأشكال آراء «معهد العلاقات الثقافية الخارجية (ifa)» أو مقاربته المؤسساتية.

ifa
Institut für Auslands-
beziehungen e. V.

كان نشر هذا الكتاب بدعم من «معهد العلاقات الثقافية الخارجية (ifa)» الممول من وزارة الخارجية الألمانية.

إلى ذكرى والدتي التي غَدَرَ بها الموتُ عشيّات الإفراج عني

إلى عائلتي، فرداً فرداً

إلى رفاق السجن، مَنْ عادَ منهم ومَنْ لم يَعُدْ بعد...

بيضاء في الأصل

هذه الشهادة...

في آذار ٢٠١١، بدأت قوى الفساد التي ظلّت جاثمة على ما كان يسمّى شعبًا واحدًا في بلدين، لأكثر من أربعين عامًا، تتساقط، وتكشّف الكثير من مظاهر الفساد والاستبداد التي أدّت إلى اعتقال آلاف اللبنانيين بطريقة تعسّفية، وإلى إخضاعهم لأقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي، وإخضاع أهاليهم للابتزاز المادي والسياسي والتلاعب بحياة عوائلهم، بالكذب وعدم الاعتراف المتكرر بوجود أيّ سجين سياسي لبناني في السجون السورية، على رغم إعلاننا، نحن، مَن عانى وقاسى الأمرَّينِ من ذلك في أقبية سجون المخابرات، حيث كثرٌ منّا ماتوا على كرسي الاعتراف العسكري، والذين ما زالوا في غياهب سجونهم أكثر بكثير.

أرى، كما أنتم ترون، وأسمع ما تسمعون عن موت الأحرار من التعذيب في شوارع سورية الأبية على يد الشبّيحة والمخابرات والعسكر المأمور... طبعًا، شاهدتم أحد هؤلاء الأحرار على الأرض وحوله عشرات المهووسين لرؤية الدماء يأمرونه بأن يكرّر خلفهم: بالدم بالروح نفديك يا بشّار... بشّار هو النبي... بشّار هو الله... يردّد ما أُمِرَ به تحت الضرب والتعذيب... ويختفي عن الأنظار! هذا

ما حصل معي، ولكن بدل الابن كان الآب. اللعنة نفسها، النقمة ذاتها.

وبجبرُوتِهم وقوّتهم وعنجهيتهم عملوا على إجبار بعض سياسيّي لبنان الرخيصين وذوِي النفوس الضعيفة، اللاهثين وراء المناصب، لتبنّي سياساتهم الخاطئة، وجعلهم يتخلّون عن مبادئ السياسة المفتوحة النظيفة، ويلتحقون بمعسكراتهم السياسية التي أدّت بهم إلى الضياع والكذب والرشوة والسرقة وتقاسم الغنيمة في ما بينهم.

نحن، المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية، كسائر الشعب السوري الحرّ، ننظر إلى تلك اللحظة الحاسمة لسقوط هذا النظام المرعب ولإزاحة آلاف الأطنان من التماثيل الصامتة واستبدالها بمشاعل الحرية القادمة حتمًا، بفضل الأجساد العارية والحناجر المتلهّفة إلى كلمة «حريّة».

أنتم أيّها السجّانون الحاكمون، تخافون الحريّة، أنتم تخافون العدالة، تخافون النور وتهوون الظلمة، تخافون قول كلمة الحق، فأخفيتم كل الذين نادوا بالحقيقة. تخافون حريّة الدين، فسجنتم الناس باسم الدين الذي أنتم تعبدون، تخافون الانفتاح على العالم فأغلقتم نوافذ الحرّية على شعبكم... كما أغلقتموها علينا بالسجن... أما الآن فسأفتح لكم نوافذ سجن تدمر السياسي وأفضح بعضًا ممّا عملت بنا أياديكم القذرة...

بدأت جلجلتي منتصف ليل الإثنين ٢٨ كانون الأول ١٩٨٧. كان اليوم الأول لمخاض عسير لم أدرك أنه سيرافقني ما بقي من عمري.

قد تختلف والدتي معي على تحديد تاريخ ميلادي... هي تظن أنها وهبتني الحياة في ٥ أيار ١٩٥٠... الحياة هذه سلبها الطغاة منّي منتصف تلك الليلة المشؤومة على مدى ١٣ سنة طويلة، كليل عصفور ينتظر بزوغ الفجر ليقتات من منقار أمّه بعض الفتات. أما تاريخ مولدي الحقيقي فكان الساعة السادسة والدقيقة الثالثة عصر ١٥ كانون الأول ٢٠٠٠، يوم أعادني سجّاني إلى عائلة لم تعد تألفني، وإلى دنيا رحلت منها والدتي ظنًّا منها أنها ستلاقيني، فكان أن أضاعتني في الأولى والآخرة.

أنا أنصح الناس بالتوبة، بالصلاة وبالعودة إلى الله عز وجلّ، أيًّا كانت ديانتهم ومهما اختلف إيمانهم... أقولها لأنني قد زرت جهنّم وعدت منها لأشهد العذاب، ولم يرُقني ما رأيت...

ع. أ. د

بيروت، آذار ٢٠١٢

بيضاء في الأصل

باب الهجرة إلى الجحيم:
من بيروت إلى السويداء

كان حلمي شبيهًا بأحلام أكثر اللبنانيين الذين عانوا الحرب والقهر والموت: أن أهاجر إلى أوستراليا طلبًا للرزق والعيش الهنيء. في ذلك الوقت، فرض تدهور الظروف الأمنية واحتدام المعارك، نقل السفارة وطاقمها إلى دمشق، فبات على اللبنانيين الراغبين بالهجرة التوجّه إلى سورية. وإذا بحماستي لتحقيق الحلم تنقلني إلى ما تبيّن لاحقًا أنه باب الجحيم، رافقتني إليه، في الخطوات الأولى على درب الجلجلة المقبلة، زوجتي وابنتي نانسي، التي لم يتجاوز عمرها آنذاك السنوات الثلاث.

قدّمت أوراقي إلى المعنيين في السفارة المذكورة ووُعدت بأن أستلم الفيزا في الأيام القادمة من كانون الثاني عام ١٩٨٨.

اقترحت عليّ زوجتي أن نزور أقاربنا في مدينة السويداء التي تبعد ١٠٠ كلم تقريبًا عن الشام. وهذا ما حصل.

نزلنا ضيوفًا على أحد الأقارب... وفي منتصف ليلتنا الثانية أيقظتني زوجتي برعب وهي تصيح:

ـ علي...! علي...!

ـ شو في؟ نانسي بها شي؟

فتحت عينيّ مذعورًا، فإذا برجل يقف فوق رأسي، يقول:

ـ السيد علي؟

ـ نعم، مين إنت؟

ـ أنا من المخابرات.

ـ وإذا؟

ـ سيارتك عليها شوية إشكالات بالدخول.

ـ كيف؟

ـ فرجيني الأوراق من فضلك.

ـ فرجيني بطاقتك إنت بالأول!

ـ حاضر.

أخرج بطاقته، كان فعلًا من جهاز الاستخبارات. شريط صور سريع مرّ في ذاكرتي: أوراقي في السيارة، الثلج يتساقط، وفي الخارج برد قارس...

تدخّل صاحب البيت معترضًا، أرجوك هو ضيفي، ولا أسمح لك بأخذه من منزلي، هذا عار سيسجّل عليّ للأبد، وأنت تعرف العادات والتقاليد...

قاطعه فورًا: لكن هذا أمن البلد؛ (ولك ما تتدخّل بشي ما بيعنيك، مهددًا: أحسنلك وإنت بتعرف موووو...).

ناولتني زوجتي معطفًا من الجلد فلبسته فوق ثيابي ورافقت الرجل إلى الخارج. فتحنا الباب. فإذا بثلّة عديدها نحو ١٥ عنصرًا من عناصر المخابرات تقف بكامل عتادها...

التفت الرجل إلى زوجتي وقال:

ـ ما تخافي، ساعة بيشرب فنجان قهوة عندنا وبرجّعلك ياه.

ـ ما بدّو هالقهوة. ما إلا لزوم. تركوا إذا بتريد.

تعلّقت زوجتي بي تشدّني إلى الخلف وقالت:

ـ خيّي خُذ السيارة، إفحصها، خلّيلك ياها، بس اترك لي زوجي!

ـ بشرفي ستّنا، أنا برجّعو وكمان بسيّارتي.

ـ إذًا، ليش بدك تاخذو؟ اسألوا هون.

ـ هيدا شغلنا. اسمحيلي، أنا مو مخوّل إسألو. في ضابط مسؤول.

ـ منشوف...

تراجعت زوجتي بخوف. كانت ابنتي لا تزال نائمة. هكذا تركتها. لم يخطر لي يومًا أن أعود لأجدها أكبر بـ١٣ سنة، وهي تجهل رائحتي واسمي وشكلي. هكذا تجمّدت صورتها في ذهني. هكذا أيضًا تجمّد الوقت.

أمرني ضابط بركوب سيارته الصغيرة دون أن آتي بأيّ حركة أو أحدث ضجّة. أصرّ على أنني ذاهب معه «بس للسؤال... نحن مأمورون... فهمت خيو؟».

أومأت إيجابًا، وجلست يحيطني رجلان ضخمان، وفي الأمام السائق والضابط، نتوسّط سيارتَي جيب. نقلني الموكب إلى جهة مجهولة، كاتبًا في تلك المرحلة من حياتي صفحة مرعبة من العذاب والموت.

وصلنا على الفور إلى ثكنة عسكرية وسط مدينة السويداء، (علمت في ما بعد أنها فرع السويداء)، حيث قاموا بتفتيشي، وصادروا ما اعتبروه «ممنوعات»، ودوّنوا اسمي في سجل من دون أن ينسوا تفاصيل أخرى على علاقة بهويتي. قال المسؤول: رح ترتاح شوي حتى يأتي العقيد... خذوا ضعوه في أحسن غرفة عنّا شو بيريد أعطوه ما حدا يتعاطى معه: لا تخاف أنت في أيد أمينة، ونحن واللبنانيون إخوة بالدم والهوية... شو الفرق بين سورية ولبنان... ما أنتو جزء منّا، مو هيك خيو؟ لم أجب... قال آمرًا الشرطي، خذو يلا مفهوم؟

- حاضر سيدي. وضعوني في غرفة منفردة كبيرة وجدت فيها حرامين متّسخين... لم أعرف إلا لاحقًا أنهما ربما كانا أنظف ما رأيت.

لم أنم. ولشدّة البرد تغطّيت بأحدهما، وجلست في الزاوية أفكّر بما قد يحلّ بي... ترى لماذا أنا هنا؟ معقول، أن يكون أحدهم كتب تقريرًا كاذبًا كما العادة ووشى بي؟ عملاؤهم هكذا يُطلب منهم ويفعلون! طيب، لماذا يكتب بي تقريرًا؟ مئات الأسئلة تكدّست في مخيلتي ولم أجد لها جوابًا... قلت محدّثًا نفسي ـ يلا متل ما الله بريد. وأنا ما عامل شي.

عند التاسعة من صباح اليوم التالي، فتح الباب، فناداني أحدهم بلغته العسكرية المعتادة، (باحترام):

ـ ولاه خنزير! فزّ وقاف على رجليك بسرعة يا حمار!

ـ ...!

ـ ولاه معك إنت عم بحكي قوم وقاف يا خرا.

ـ احترم نفسك، وجلّس كلامك مفهوم؟ لم أنهِ كلامي...

فأفهمني، بضربة لم أكن أتوقّعها، أن نعمة الكلام سُلبت منّي، فأرداني أرضًا.

ـ هون ما في كبير إلا أيـ...[1] ولا حرف! ليك الخرا. ليك...! مشي ولاه. وقاف انقبر. مدّ إيديك ورا ضهرك.

من دون وعي سلّمته يديّ وصمتّ:

كبّلني وعصب عيني، وقادني من الأصفاد على هواه. فإذا بي مرّة أصطدم بالحائط وأخرى أقع. جرجرني إلى أن وصلنا إلى أحد المكاتب. عرفته نظرًا إلى وجود سجّادة.

ـ بس بتجاوب بنعم مفهوم؟ وإلا أنا بفهّمك!

صمت.

ـ قول حاضر ولاه.

ـ نعم.

ـ حاضر!

ـ حاضر.

---

(١) أي عضوه التناسلي.

ثم سمعت صوتًا هادئًا يقول: «علي إنت حوّلوك إلى الشام، ومن هناك ستنتقل إلى بيروت إنشاء الله. نحنا ما بدنا منك شي. سلموه الأمانات وخلّوه يبصم، انتبهوا بهمّنا أمره».

حضرة الملازم، لماذا أنا هنا؟ لماذا إلى الشام... ماذا فعلت؟ زوجتي وبنتي بعدن هون شو القصّة؟

أصغى إليّ من دون أن يجيب، فقط أومأ لمساعده كي يأخذني وقال الله يكون معك.

غادرت المكتب. استلمت أغراضي وتنبهت في ما بعد إلى أنها ناقصة، بعدما فُقد خاتم كانت زوجتي أهدتني إياه فضلًا عن مبلغ من المال.

اقتادوني إلى سيارة جيب فيها ثلاثة مقاعد، ومدّدوني في الوسط، (طبعًا مكبّلًا بالأصفاد، معصوب العينين)، وهي العادة لنقل السجناء من مكان إلى آخر.

- «لا ترفع راسك تبقى محترم، وإلا ما بتلوم إلا نفسك...».

- ...

عندما وصلنا إلى الباب الرئيسي، زوّدوا الحارس بكلمة السرّ ورقم المهمّة وبرقية، من دون أن يأتوا على ذكر اسمي.

انطلق الجيب بسرعة إلى الشام حيث «فرع المنطقة»[١] المعروف

(١) أحد أسوأ الفروع للتحقيق.

بـ «فرع المسلخ». هناك أعادوا تفتيشي وسلّموني أغراضي، ثم فكّوا قيدي ليرفعوا بصماتي، ويأخذوا لي صورًا نصفية مع رقم... كما كنت أشاهد المجرمين في الأفلام عندما يُلقى القبض عليهم.

كبّلوني ثانية ونقلوني إلى الطبقة الثالثة. بقيت في الممرّ نحو ١٥ دقيقة أتعرّض للركلات والضرب من قبل كل من يمرّ بجانبي. الواحد يقول للآخر سَحْسِحْلو، (اصفعه على رقبته)، حتى من دون أن يعلموا ما إذا كنت مذنبًا أم لا! إنها المخابرات وفروعها.

فجأة فُتح باب إلى جانبي وأمرني أحدهم بالوقوف وأدخلني إلى غرفة وأجلسني على كرسي حديد. أقفل الباب. هدوء. لا صوت ولا حركة. أنا معصوب العينين لا أرى ولا أدري من معي... مرّت لحظات خلتها ساعات طويلة شعرت فيها بالخوف والوجل. كنت حذرًا أسترق السمع علّني أعرف أو أتخيل ماذا سيأتي.

وما هي إلا لحظات حتى هزّني صوت قوي من الأعماق صارخًا: أهلًا، صرلنا زمان ناطرينك وعم نراقبك. يلا من أولها. بتساعدنا بتوفّر عليك وعلينا. لم أفتح فمي وكأن الكلام ليس موجهًا إليّ ولست أنا المقصود!

ـ يا علي في خبرية عنك مش كويسة...! شو بدنا نتفاهم وتقلّنا شو هي؟

ـ شووو؟

ـ بدك تعترف أو لا؟

ـ بشو!

ـ لا... بشو؟! وكل اللي عاملو ما له أهمّية؟!

ـ أنا مش عامل شي!

ـ شوف، إذا خبّرتني شو صار معك بكون أحلى لك؟

ـ ما عندي شي! شو بتريدني خبّرك، حاضر.

ـ ولاه، شو فاكرنا نايمين ما منعرف شو بصير حوالينا! لازم تعرف نحنا المخابرات السورية أقوى استخبارات في العالم، وما في عنّا بالسجون كلها غرفة فاضية، اسمع منّي واحكِ.

ـ شو بدّك إخترعلك خبريات وقول لك أَسماء وأتهم ناس؟

ـ ليك المنيك ليك! بدّي خوزقك يا عكروت! ما تبلّش تتذاكى، ولاه نحنا عارفين كل شي!

ـ والله سيدي ما عامل شي، شو بدّي قول؟

ـ بس بدّي الحقيقة! وإلا...! بخلّيك تحكي غصبًا عنك! جاوب ولاه.

ـ ما عامل شي وما عندي حكي!

ـ حطّوه في الكرسي![1] هالعرصة... إنت يا منيك يا حارس ولاه بسرعة.

لم أكن أعلم ما هي الكرسي، قلت أنا الآن جالس على الكرسي! شو بدو يصير يعني؟ وإذ بأحدهم يجذبني من يديّ المكبّلتين

---

(١) الكرسي الألماني: كرسي معدني له أجزاء قابلة للحركة يُشدّ عليها وثاق الضحية من اليدين والقدمين. يتجه مسند الكرسي الخلفي إلى الوراء فيُسبّب توسعًا كبيرًا في العمود الفقري وضغطًا مؤلمًا على عنق الضحية وأطرافها؛ (عن مقالة بقلم خالد الأحمد عنوانها «التعذيب في السجون السورية»).

الكرسي الألماني!

ويرميني أرضًا، صائحًا: نام على بطنك ولاه، ثم بدأ يدوسني جاذبًا كتفيّ إلى خلف مدخلًا قضيبَين من الحديد تحت إبطي ومقعد الكرسي على آخر ظهري. شدّني إلى أعلى فإذا بصيحة دوّت منّي كأنها صيحة الوداع إلى المثوى الأخير! نصفي من أسفل بطني إلى رجليّ ملامس الأرض ونصفي العلوي ملتصق بكرسي الحديد إلى الأعلى. لم أعد قادرًا حتى على الصراخ أو التنفّس. أصبحت كزاوية ٩٠ درجة، فأغمي عليّ.

لم أعرف كيف وصلت إلى غرفة معتمة. لم أتذكّر إن كنت مشيت أو زحفت. كنت لا أزال مقوّس الظهر ورأسي يلامس ركبتيّ، أئنّ من الوجع غير المحتمل. كل ما سمعته كان من الحارس آمرًا. لا اسم لي، أو لنقل إن اسمي تحول إلى نكرة جديدة وهي الرقم ٦، يعني لما نقول ٦ بتقول حاضر يا عرصة مفهوم ولاه؟ وأغلق باب الحديد وذهب. الغرفة أو الزنزانة معتمة جدًا لا أرى حتى إصبعي. تحسّستها، ضيقة بالعرض. زحفت إلى أعلى وصلت فورًا... إلى أسفل، لمست الباب علمت أنها صغيرة جدًّا. إنها مبنية خصّيصًا لينام فيها خروف صغير.

مرّت ساعتان أو أكثر، من دون أن أسمع أيّ حركة أو ضجّة مساجين، تخيّلت أنني الوحيد في هذه البقعة من الأرض.

فجأة سمعت صرير باب الحديد يفتح ودخل الزنزانة نور من طاقة في أعلى الباب. صاح الحارس: «مدّ إيدك يا ٦ خذ». لم أستطع مدّها من الألم، صاح ثانية: «٦ ولاه، علّيها شوي يلّا في غيرك». أخذت وقتي لكي ألمس علبة بلاستيكية، علبة حلاوة بداخلها حبة بطاطا

وبيضة مسلوقة ورغيف من الخبز. سمعته يقول أرقامًا ويفتح الأبواب قائلًا: كل واحد بس ناديه برقمه بيضهر من دون غلط يا ساقطين، يا أحلى عرصات. علمت حينها أنني لست وحيدًا بل لي رفاق ورفاق. لم آكل، حتى إنني أضعت مكانها في عتمة الغرفة أو في عتمة حياتي. فُتح بابي ونادى ٦ أجبت مثل الباقين من السجناء: حاضر. قال: يلا إلى الحمّام راسك بالأرض ممنوع تحكي؛ معك دقيقتين بتخلّص وبترجع لغرفتك. مفهوم ولا لأ؟ نعم.

لم أدرِ كم مرّ عليّ من الوقت ولكن رغم ألمي غفوت.

فُتح الباب وقال الشرطي: ٦ يلا إيديك خلف ظهرك. كبّلني ووضع عُصابة على عينيّ واقتادني إلى المكان نفسه الذي تركته محمولًا، من ساعات قليلة، عاد الصوت نفسه صائحًا: شو رح تحكي؟

ـ أجبت بالنفي.

ـ أجاب بالعذاب والضرب.

عذّبوني بالكرسي في اليوم التالي أيضًا، وجلدوا ظهري وكتفيّ بكابل كهربائي بأربعة أطراف، ويسمى كابلًا رباعيًّا. وكما المرة الأولى عدت إلى غرفتي ربّما محمولًا أو مجرجرًا في الحقيقة، لا أدري. لم أعِ كيف!

منعوا عنّي النوم، إذ كنت كلما غفوت، ضرب الحرس باب الزنزانة بأرجلهم ثم يرمون عليّ ماء... عبثًا أحضروا لي الطعام... حاولت إدخال لقمة في فمي فلم أفلح وكيف يمكن معذبًا أن يأكل؟

استمرّ التعذيب في شكل يومي، لم أرتح إلا عندما يتعب المحقّق... بعد أسبوع أكثر أو أقل، (لكثرة التعذيب وقلة النوم والأكل نسيت عدد الأيام التي أمضيتها إلى الآن)، قال متعاليًا: أنا بعرف كيف بخلّيك تحكي، جيب الكهربا يا حرس... وجاء دور الكهرباء... فارتجفت... قبل البدء بالتعذيب.

يا ويلي... وضعوني في كرسي حديد وألصقوا بها طاولة. لم أشعر حينها بأيّ قلق... فكّوا القيد الذي كبّل يديّ وراء ظهري، ثم أمروني بوضعهما على الطاولة، وربطوا كل يد على حدة. كنت معصوب العينين، لكنني أحسست بأنهم يلصقون قطعة ما على جفنيّ وفي أذنيّ وخاصرتي، وتحت إبطي وعلى إحدى أصابعي، ثم أمروني بأخذ نَفَس عميق. هزّت صاعقة كياني، فصرخت كمن يعاين الموت... أعادوا تعذيبي بالكهرباء مرات عدة، وكانوا بين الصعقة والأخرى يسألون: شو؟ قابلته ولّا لأ؟

– لا...!

لم أعرف عمّا يتحدثون، وإلى أيّ مقابلة يشيرون. أمر المحقق الشرطي بتغيير مواضع الشحنات الكهربائية، فوضع الشريط اللاصق على عضوي التناسلي... وصعقني مرّة ثانية، وأغمي عليّ. لم أدرِ كيف عدت إلى الزنزانة، (كالعادة)، ولم أذكر ما إذا كنت ذهبت إليها بمفردي أو بمساعدة أحد...

هكذا، مرّت أيام لم أعرف أولها من آخرها، وأنا محروم من لذّة النوم. آكل القليل القليل، جرح بلعومي من كثرة الصراخ وقلة الشرب،

تركوني لفترة من دون تحقيق، ظننت أنني قد ربحت المعركة ضدّهم، وربما قد يُخلى سبيلي وأعود إلى بلدي الحبيب لبنان... خاب ظنّي وها هم يرسلون بعدها بطلبي إلى مكتب المحقّق. وما هي إلا ثوان حتى صاح بي:

ـ يا حمار ليش حابب تتعذّب وتعذّب أهلك؟ وصلتنا رسالة بأنك قابلته، وإذا بدك منفرجيك...!

ـ أقابل من... فرجيني.

ـ رح فرجيك نجوم الظهر يا منيـ... ك

دوّامة جنون لم أفهم منها شيئًا...

استمر التعذيب شهرين كاملين، فقدت فيهما أكثر من ٢٠ كلغ من وزني وفقدت التركيز والقوة، ودخل اليأس قلبي ليحلّ مكان الأمل. ولكثرة ما ذكر المحقّق وقال ووعدني بأني إذا تجاوبت معه واعترفت بأنني أتعامل مع جيش لبنان الجنوبي، فإنه سيخلي سبيلي ويكرّمني ويعاملني معاملة حسنة ويبعد بذلك الضرب والأذى عني... لسوء الحظّ صدّقته فاضطررت إلى الاعتراف مكرهًا بذنب لم أرتكبه.

لقد وقّعت اسمي على ورقة بيضاء، قلت له: اكتب ما يحلو لك. لم أعد قادرًا على التحمّل أبدًا. تركني المحقّق لبضعة أيام من دون أن يسأل عني وحتى الحرس لم يؤذوني. لذلك، استعدت بعضًا من قدرتي وقوّتي ما دفعني إلى طلب المحقّق وإنكار ما كنت قد اعترفت به مكرهًا.

ـ قال لي: ولاه، شو مفكّر نحن وياك عمنلعب برتية طاولة... بدّي وما بدّي. اعترافاتك وصلت لفوق يعني لعند العميد... صحيح إنك موو هين يا عرصة.

ـ أنا اعترفت بشيء لم أفعله وكان تحت تأثير الضرب والتعذيب.

ـ ولاه، نحن عذّبناك؟! موو عيب عليك تكذب يا سيد علي؟! قالها بسخرية وضحك.

لم أدرِ لماذا أثارت ضحكته غضبي وأعطتني شحنة من القوة والتحدّي ما دفعني للقول ثانية له: لولا التعذيب لما اعترفت لك بذلك، يعني أن اعترافي أُخذ منّي بالقوة وهو باطل وفق القانون. لذلك، إنني أنكر كل الاعترفات وسأنكرها أمام حضرة القاضي.

ـ يا عرصة، إذا لحقت وشفت قاضي حينها أنكر... وصاح بغيظ للحرس ولاه نيك أمو، اسلخ جلده، ورجّعه لزنزانته.

وكما يقول المثل عندنا: «ما توصي حريص» نلت من العقوبة القوية ما لم أكن أتوقعه.

لم أكن أدرك أن الهمجية يمكن أن تستملك الإنسان لهذه الدرجة، فتطرد منه كل شعور بالمحبّة، أو التعاطف مع البشر. وقد عزز اعتقادي الساذج هذا ما سمعته مرّة عن بعض المعتقلين في إرلندا الذين كادوا يموتون إثر إضرابهم عن الطعام، أو أن ينالوا مطلبهم، لكنهم في نهاية المطاف نالوا حقوقهم. احترمت آراءهم، وقدّرت شجاعتهم. فقرّرت تحصيل حقّي بالسبل الديموقراطية نفسها.

أمضيت خمسة أيام من دون مأكل أو مشرب ـ وكان جسمي قبل ذلك بكثير قد ضربه الهزال، ولم أعد أقوى على الوقوف.

واظبت، إذًا، على رمي وجبة الفطور في المرحاض لدى خروجي من الزنزانة، ثم فعلت الأمر نفسه مع وجبة الغداء. وعندما يحين وقت العشاء، كنت أقول للحرس إن لديّ بعض الفتات من الوجبتين السابقتين.

يذكر أنهم في «فرع المنطقة»، كانوا يبدّلون الحرس كل ستّ ساعات، الخامسة فجرًا، والحادية عشرة قبل الظهر، وهكذا دواليك. لذا، كان كل حارس تحين مناوبته يجهل ما قدّمه من سبقه من وجبات، ما أتاح لي الاستمرار في إضرابي ستّة أيام من دون معرفة أحد.

كنت أردد أسماء بناتي وأشقّائي وشقيقاتي، وأضرع إلى الله كي يغفر لي ذنوبي ويريحني من عذابي، مبديًا رغبتي في الموت. قلت محدّثًا نفسي عن والدتي: سامحيني لكل غلطة ارتكبتها بحقك، لكل هفوة، لكل جواب غير مهذّب صدر مني. يا أمي أنا قررت أن أضرب عن الطعام حتى الموت. لو أمكنني لركعت أطلب منك الرحمة والغفران لأنني أستحقّهما. ورغبتي في الرحيل عن هذه الدنيا ليست إلا هربًا من ظلم لا يحتمل. آه، لو تدرين كم أتألّم، لو ترين في أي حال أنا... للعنتِ المخابرات والمحقّقين الكلاب الذين لا يرحمون ولا يعترفون بالله... سامحيني يا أمّي، سامحيني، سامحيني... وتخدّرت ولم أعد أحسّ بشيء.

في اليوم السادس ضربت باب الزنزانة برجلي، فردّ الشرطي:

ـ شو بدك ٦[١]؟

ـ ورقة وقلمًا كي أكتب رسالة إلى مدير السجن. أنا مضرب عن الطعام، وسأبقى مضربًا حتى الموت. لا أريد أحدًا، لا أولادي ولا زوجتي ولا أشقّائي وشقيقاتي. أريد الموت. غاب الشرطي لحظات، عاد بعدها يرافقه طبيب السجن والمساعد المسؤول.

ـ ليش عملت هيك يا ٦؟ يا ابن الشرمـ...! جبتلّي بهدلة كبيرة من العقيد... يا حقير... بدي خلّيهن ينيـ...!

كنت لا أزال مرميًا على الأرض، فحاول الشرطي أن يرفسني. عندما تيقن أن لم يعد بإمكاني الوقوف لشدة الارتعاش، أدخل كرسيًا إلى الزنزانة وأجلسني.شرع الطبيب يفحصني، ففتح فمي وأخرج لساني المتشقّق، ثم عاين شفتيّ وحلقي المطبق، حيث يخرج الكلام ويجرح مكانه... فقال الطبيب:

ـ شوف يا ٦، اسمع مني. أنا مو عسكري. أنا عندي رسالة إنسانية يجب أن أقدّمها... رح أطلب يجيبولك حليب، وبيض مسلوق لمدة عشرة أيام، فتأخذ كل يوم ثلاث قناني حليب وثلاث بيضات، وبوعدك إنو بطلب من العقيد يساعدك، بس وعدني إنك بتوقّف الإضراب.

---

(١) سُمّيت «٦» تيمّنًا برقم الزنزانة التي سُجنت فيها طوال فترة التحقيق في فرع المنطقة.

ـ لا، أنا بدي ثلاثة أو أربعة أيام وبموت. ما أضربت حتى بطّل...

تدخّل الشرطي المناوب:

ـ والله إذا عرف العقيد ولاه بيقتلك! شو مفكّر حالك أحسن من غيرك؟ متل طيـ.. إنت ولبنان! ولاه اسمع مني الرسالة بعدها معي ما أرسلتها للعقيد! تراجع فوت على غرفتك، بوعدك بحسّنلك ظروفك، بسمحلك تتمشّى بالممرّ كل يوم ١٠ دقائق. بشرفي بوعدك. وهذا الوعد يعني الكثير للموقوف، يعني أن يشرب سجائر مع القهوة أو الشاي الساخن، أن يبقى خارج زنزانته لمدّة غير قصيرة؛ (وهذا ما كان يحدث للمساجين المخبرين عن رفاقهم).

رفضت. فقال الطبيب:

ـ خسرت يا ٦. شوف شو راح يصير معك، إذا فيك تتحمّل بتكون بطل! ولك أنا صرلي سنة هون طبب أمثالك، كلمة لله، تراجع عن الإضراب فقط لمصلحتك.

ـ لقد اتكلت على الله وهو المعين والمخلّص، سيكون إلى جانبي حتى النهاية.

قال الضابط: معك كل الحقّ، ولكن الله لا يدخل هنا وإلا لما وجدتني أمامك. هنا فقط للاستخبارات. ولاه، راح تشوف نجوم الظهر. خذوه عند العقيد. دخلت غرفة كبيرة مشيت داخلها أمتارًا عدة وأجلسوني على كنبة جلد غرقت بداخلها لما تتمتّع به من الرفاهية... وتكلّم العقيد بهدوء لم أعهده منه أبدًا، واعدًا إياي، مسترسلًا بالحديث عن الفاتح صلاح الدين الأيوبي وكيف وحّد العرب

وقام ببطولات وهزم الإفرنج هزيمة شنعاء. كنت أصغي محاولاً ربط قصّة صلاح الدين الأيوبي بإضرابي عن الطعام وما هو الرابط؟ إلى أن قال... عندما دخلوا الإفرنسيين الشام عام ١٩١٩ بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى، ذهب ضابط فرنسي إلى مقبرة البطل صلاح الدين ولبط المقبرة قائلًا:

ها نحن عدنا يا صلاح الدين، ألست أنت القائل إنها هزيمة للأبد... خسئت نحن عدنا... إلى شامك الحبيبة...

قال العقيد: يا علي، معقول تساعد الغريب على بلدك سورية... إنت آدمي فكّ إضرابك وأعدك بشرفي أن أساعدك وأسمح لك برؤية بناتك وزوجتك، قالها، شرط أن أعلّق الإضراب، وتعهّد بأنه سيطلق سراحي قريبًا جدًا وأردف: يا علي، هات احكِ لي ليش مضرب عن الطعام؟ شو في عندك؟ قول... ليك يا علي، المذنب لا يحق له الإضراب بتاتًا. وإنت حسب اعترافاتك عميل إسرائيلي متمرّس. يعني شو؟

ـ اعترفت تحت التعذيب، هذه اعترافات انتُزعت بالقهر والتعذيب!

ـ ولاه نحن ما بنعذّب ولا بنضرب. شو مفكّرنا يهود! عيب يا علي، قوللي شو مطلبك؟

ـ بدي أعرف ليش أنا هون... بدي فلّ لعند أهلي... بدّي شوف أمّي وأولادي... زوجتي... إخوتي... بدي شوف وجه الله.

ـ وعدني إنك تفكّ إضرابك وعليّ الباقي.

ـ سيدي بلكي فكيت إضرابي وإنت كذبت عليّ... هيدي قديمة

سيدنا... إنت بالأول. اهتاج كثور وركل الطاولة وراح يشتم في محاولة لإخافتي. لكنه عاد وهدأ بسرعة.

- شو هالحكي؟ معقول أوعدك أنا وما تصدّقني، وإنت تبقى مضرب عن الطعام؟ طيب بلكي متّ اليوم... حل الإضراب وإنشاء الله على خاطرك الأمور بتصير.

رفضت.

- معك دقيقة لتجاوب، يعني بين الموت والحياة عندك دقيقة واحدة!

- ...

- رح تفنى ولاه في السجن. والدبّان الأزرق ما راح يعرف وينك. بوعدك راح تموت بالزنزانة. بلّشوا فيه ولاه... ركلة جبارة أتت على معدتي الخاوية من حيث لا أدري. وبصقت الدم...

- ضهّروا هالمنيك، شلّحوه واجلدوه حتى الموت! ولاه شو نحنا ما فينا نموتك... خلّيها علينا نحنا منموتك!

أخرجوني، فكوا قيودي ورموني أرضًا بعدما خلعوا عني ثيابي. فقدت وعيي بعد الضربة الأولى، ولم أصحُ إلّا وأنا أشرب الحليب مع الطبيب وقد أعلمني بأنه حقنني بالسوائل وأشربني الماء... فأنهيت إضرابي رغمًا عنّي... بقي الطبيب إلى جانبي ومعه قنّينة حليب وبيضة مسلوقة... كان يحدّثني مبتسمًا:

- من الأول كُول، أفضل إلك وإلنا وبلا هالعذاب! أمثالك مئات عملوا إضرابات عن الطعام. الكل بالطريقة نفسها فكّ إضرابه، وندم

على عملته السوداء... ولك هالعقيد مشهور وموصوف بحسن إدارته السجن والسجناء، منشان هيك ما بيغيروه أو يبدلوه... افهموا ولاه أحسن لكم. خود كول هالبيضة المسلوقة واشرب حليب وراها، وعند المساء أمرتهم يجيبوا لك حليب وبيض لمدة خمسة أيام. ولمّا تتحسّن بيطلقوا سراحك وبتروح عالبيت... يلاّ يلاّ ٦ كول... حسّن صحّتك بخمسة أيام وعالبيت إنشاء الله.

تركني. أقفل الباب ورحل. لم أرَ وجهه ثانية.

جلست في زاوية زنزانتي أفكر بكلامه: شو كنت حمار يا علي! كنت متّ وراحت عليك... بس إنت بطل، لو ما عملت هيك ما كان العقيد قرّر يفرج عنك. يلاّ كول... اشرب... قوِّ حالك... رح تشوف ولادك إنشاء الله.

لشدّة الإرهاق، غفوت ساعات، وصحوت مساء على صرير الباب، عندما دخل أحدهم إلى الزنزانة ليسلّمني قنّينة الحليب وثلاث بيضات مسلوقة ساخنة.

قال: زبطت معك يا عكروت... ولاه، سمعت أنهم رح يطلقوا سراحك... معقول؟ يلاّ كول. بس بتعرف إنك من عملتك هيدي جبت عقوبة لزملائي، ما كان لازم تعمل هيك، أكلوا ٣ أيام حبس كرمالك، بس أنا كنت في إجازة، زمطت.

ـ وأنا كمان رح فلّ عالبيت.

ـ الله والنبي معك!

أقفل الباب ورحل.

لم أنم. للمرة الأولى شعرت بروحي ترفرف فوق بناتي، تحتضنهن، تقبّلهن بشوق حار لا تطفئ ناره إلا دمعاتي: ألاعبهن، أركض ويلحقن بي، أختبئ، أفاجئهن ويعلو الصراخ... أسمع أصواتهن في أذنيّ. هنّ هنا، بقربي، وأنا معهن، يطرد شعاع النور المنبثق من أعينهن ظلمة سجني وبؤسي. أبتسم، أحرّك يديّ كي أمسك بإحداهن، فيتحوّل النور سرابًا، ويعود الليل ليرخي سدوله على حياتي.

كطفل صغير، أبحث عن أمّي، وأقول لها: ها أنا آتٍ إليك. سأكلّمك، سامحيني سيّدتي، لم أشأ أن أزعجك كما فعلت البارحة عندما قرّرت الموت، كنت عذّبتك. أنا آتٍ إليك، افتحي ذراعيك، احضنيني كما في طفولتي، ودعيني أقبّل يديك... يا أمّي الغالية.

حدّثت زوجتي، قلت لها: حبيبتي، تغيّبت عنك مرغمًا لخمسة أشهر، عذّبتك، وتركتك وحيدة. لا تحزني، إنشاء الله أعوّض ما فاتنا. تعرفين مدى حبّي لك وتعلّقي بك. اهتمّي بالأولاد وأنا آت. خمسة أيام وأعود.

صرير الباب مرة جديدة. أصحو، أتناول الفطور، وأطلب إلى السجان أن يأذن لي بقضاء حاجتي والاستحمام: تكرم عينك. وكمان بماء ساخنة؛ (الحمام بماء باردة عادة وكل ما أرادوا أن يميزوا سجينًا عن آخر أو لنقل أرادوا أن يأخذوا منه شيئًا ما أدخلوه الحمّام الساخن). تنعمت بحمّام ساخن وليفة وصابونة ذات رائحة عطرة خلتها حمّام الزواج.

وفى العقيد بوعده، وكانت ليلتي الأخيرة في فرع المسلخ، أرسلني إلى فرع فلسطين. كان ذلك في ٦ أيار ١٩٨٨. والله لو كنت أعلم بأن العقيد مظهر فارس مدير سجن فرع فلسطين سوف يستقبلني، لما أعلنت إضرابًا عن الطعام...

تنبّهت وأنا في فرع فلسطين إلى أن أي اعتراف ربما يقودني إلى المشنقة، فتشبثت ببراءتي...

لا يخفى عليكم لقد أعادوا التحقيق من البداية مصحوبًا بالضرب والتعذيب والذل والشتائم منها الجديد والقديم معًا.

بعد أن كرّرت أمام المحقّق الجديد في فرع فلسطين بأن الاعتراف انتزع مني بالتعذيب. قال: حسنًا، أرجعه إلى زنزانته يا عسكري.

أسمع إلى اليوم صوت المحقق يصيح في أذني: رح اتركك شي ١٥ يوم حتى ترتاح، بس تحس إنك لازم تحكي اطلبني. خذوه!

في طريقي إلى الزنزانة رقم ١٣، الرقم الذي صار في ما بعد اسمي، شعرت ببعض الفخر ظنًا مني بأني انتصرت على بطش المحقق: ١٥ يومًا تفصلني عن الحرية! بلغت باب الزنزانة بعد نحو ستّ دقائق، وكنت لا أزال معصوب العينين مكبّل اليدين. كانت زنزانتي ضيقة جدًا، لا تتعدى قياساتها ٩٠ سنتيمترًا عرضًا و١٩٠ سنتيمترًا طولًا وبالارتفاع نفسه تقريبًا. لم أرَ في الوكر هذا سجنًا بقدر ما أحسست بأنه ملاذ، أهرب فيه من التعذيب والألم، بعيدًا من إرهاب المحققين ولؤمهم. دفعة عنيفة من الشرطي رمتني إلى داخل الزنزانة أعادتني

إلى الواقع. فإذا به يطلق سراح نظري، ويهمّ بالرحيل. فصحت: يا سيّد! الكلبجة ما فكيتها!

ـ بدها ترافقك للقبر إن شاء الله يا ١٣. اخرس ولا تنطق بحرف! هذه هي الأوامر، فهمت؟ وإلّا بتعرف شو بصير!

فكرت أنه سينزع الأصفاد عند العشاء. وجاء المساء:

ـ معك١٠ دقائق لتأكل وتقضي حاجتك، وبعدها بترجع الكلبجة.

ـ ليش؟

ـ لأنك ابن...!

لم آكل. عدت من الحمّام إلى الزنزانة، وكانت يداي متيبستين خصوصًا عند منطقة الكتف. فقررت أن أختبر قدرتي على التحمل علني أفوز هذه المرة.

مرت الأيام بطيئة موجعة أجلس القرفصاء أو أقف وأمشي قليلًا متكئًا على الحائط، أو لأقل على رفيقي الدائم الذي سند وصاحب آلاف السجناء قبلي ولم يخن أو يترك أحدًا. في اليوم السادس غلبني الألم وتيبست كتفاي. لم تشفَ كتفي اليمنى بعد من ضربة عصا تلقيتها في بداية التحقيق في فرع المسلخ.

قرعت الباب برجليّ ورأسي.

ـ مين بدق ولاه؟

ـ ١٣

ـ شو بااااك؟

ـ بدّي المحقق...

ـ لحظة ولاه!

غاب الشرطي نحو خمس دقائق ثم عاد ومعه المناوب المساعد...

ـ شو في ١٣؟

ـ أريد مقابلة العقيد.

ـ إنه في إجازة، وما بيرجع قبل الأسبوع المقبل. ما فينا نعمل شي قبل عودته! ما تدق الباب. ما تزعجنا أحلى ما نزعجك... رح تبقى على هالحالة حتى يرجع.

ـ كيف؟ عندي كلام بدّي قوله!

ـ بس يرجع.

بقيت على حالي أتلّوى وأتألم. لم أعد آكل إلا القليل القليل أي بمعدل وجبة واحدة كل يومين.

كنت قد فقدت من وزني نحو الثلث أي ما يقارب ٣٠ كلغ.

وكان معتقلاً في الزنزانة المقابلة شخص لبناني أرمني، وهو الآخر معلّق بسقف زنزانته بأصفاده، ورجلاه لا تزالان تطآن الأرض:

ـ ١٣...؟

ـ مين؟

ـ أنا ١٧...

ـ نعم!

ـ حبّي، كُلْ، شدّ حالك لتصمد! قوّ جسمك وإلاّ بتفرط، وبتصير تحكي شي شمال شي يمين. هنّي بدّن هيك... وأنا صار فيّ هيك. أنا من برج حمود، بعرفك لبناني...

ـ من وين من برج حمود؟

ـ جنب مقر حزب الطاشناق. بتعرف حدا من هونيك؟

ـ بعرف كتير. بس ما بتذكر اسم العائلة. أنا من الدكوانة. ساكن جنب النافعة. جيراني كلهم أرمن تقريبًا مثل ساكو اللحام، أرتين النجار، أبو ساكو عنده محل في شارع أراكس...

وفجأة سعل أحد المساجين في زنزانته مشيرًا إلى مجيء أحدهم، فسكتنا.

فكّرت بما قاله ووجدته محقًّا. عندما جاءني الطعام أكلته، وكان مؤلفًا من قطعة بطاطا ورغيف خبز. بدأت أشعر بأنني أقوى... أقلّه نفسيًا.

مرّت الأيام بطيئة، وأنا مكبل، لا يخفّ ألمي إلا لثلاثين دقيقة مقسطة على ثلاث مراحل في اليوم الواحد: عشر دقائق للفطور، ثم للغداء والعشاء. وأحيانًا كان يشفق عليّ أحد السجانين، أذكر اسمه سكّر فيتركني حرًا خلال نوبته كي أغسل له بذلته الرياضية أو بيجامته المهترئة، كنت أفعل ذلك فقط كي يريح يديّ من الأصفاد دقائق معدودات، إلى حين انتهائه من إخراج باقي المساجين لقضاء الحاجة، فأنعم بيدين مطلقتين متألمتين.

في اليوم الثاني عشر أحسست بالشلل يمتد من كتفي إلى يدي اليمنى، فشرعت أصرخ وأبكي حتى أتى الشرطي المناوب وطلب الطبيب، الذي بدوره عالجني بإبرة مهدئة... نمت «محررًا» في سجني حتى صباح اليوم التالي، التاريخ المفترض لعودة المحقق.

قبل موعد الغداء فتح الباب وعصب آمر الزنزانة عينيّ واقتادني إلى أعلى، حيث مكتب المحقق. جلس الأخير على الكرسي المقابل وسألني:

ـ هات شو بدك؟ شو عندك؟

أنا ما عندي شي.

ـ ليش طلبتني؟

ـ لم أعد أحتمل، تيبست يدي اليمنى، لم يعد بإمكاني تحريكها.

ـ بدّك تعترف أو لا؟

ـ بأمرك سيدي. عطيني ورقة بيضا لأبصم...

كررت الاعتراف السابق نفسه لدى محقّق فرع المسلخ. فقال المحقّق متعاليًا: لا تستطع الإنكار بتاتًا لأنك اعترفت من دون إكراه أو ضرب أو تعذيب.

وهذا ما حصل.

فك القيد عن يديّ وأعادني إلى ظلمة السجن الإفرادي. فبدأت ببعض التمارين لأعيد حركة الدم إلى ذراعيّ وكتفيّ... ولا زلت حتى اليوم عاجزًا عن تحريكها بصورة جيدة.

بعد ذلك بشهرين تحدثت إلى الأرمني، ولسوء حظي، كان الشرطي يختلس السمع من دون أن نشعر بوجوده... فنادى المناوب. قاما بجلدي وضربي وتعليقي في مدخل الزنزانات من يدي اليمنى إلى أن انفصل معصمي عن ذراعي...

أنزلوني ولم أنبس ببنت شفة.

ما زالت يدي معطوبة إلى الآن. أما الأرمني فلم يعاقب لأنه كان يسمع من دون أن يتكلم، وفق تبريرات الشرطي. لم أعد أعرف شيئًا عن صديقي الأرمني، والله وحده يعلم ما حلّ به.

قضيت معظم الوقت في الزنزانة أمارس تمارين رياضية، لا سيما المشي.

كيف؟

يبلغ طول الزنزانة، كما ذكرت، ١٩٠ سنتيمترًا. كنت أمشي يوميًا ٣ كيلومترات: ١٥٨٠ مرة ذهابًا وإيابًا، حتى تلامس كتفي الحائط ثم أعود إلى الباب، على أن أقوم بعدها بـ٥٠ مرة بتمارين السواعد[١] ثم تمارين شدّ المعدة.

حاولت أيضًا ممارسة اليوغا، رغم جهلي التام بهذه الرياضة الروحية، فأحاول التربع واضعًا يديّ على ركبتي، وأركز على رأس أنفي محاولًا رؤيته في الظلمة، وآخذ نفسًا عميقًا وأكرر العملية. أحيانًا كنت أتمدد بما تيسّر، وأرفع رجليّ لأقف على رأسي. كان الأهم أن يمر الوقت... كيفما كان.

قصة الخيط والإبرة

مضى على وجودي في السجن الانفرادي أكثر من سبعة أشهر عندما بدأت ثيابي بالاهتراء. ولشدة الضرب والتعذيب بالدولاب

(١) أي الـ Push-up.

من الجسد في دولاب سيارة، بحيث تُصبح قَدَما المعذّب في الهواء عند قلبه على ظهره
فيسهل تعريضه لـ«الفلقة».

الدولاب: تقنية تعذيب قوامها ليّ جسد الضحية وذلك بحشر الرأس والقسم السفلي من الجسد في دولاب سيارة، بحيث تُصبح قَدَما المعذّب في الهواء عند قلبه على ظهره فيسهل تعريضه لـ«الفلقة».

والكرسي الألماني تمزق سروالي. وصرت كلما خرجت لتلبية الواجبات اليومية أو لقضاء حاجتي، ركلني الحارس قائلًا:

- ولاه قطّب بنطلونك!

ضقت ذرعًا، واستجمعت شجاعتي وسألته: كيف أصلح سروالي من دون المعدات اللازمة؟!

- لما ترجع على زنزانتك دق الباب وذكرني.

عملت بنصيحته، وقرعت الباب:

- مين؟

- ١٣ سيدنا.

- شو باك يا ١٣؟

- بدي إبرة وخيط.

ناولني إياهما من الشرّاقة[1]، وهددني بالويلات لو أضعتهما. غرزت الإبرة في إصبعي الوسطى وضممت إبهامي والسبابة كي أتحسس ثقب الإبرة وبدأت المحاولة تلو الأخرى في إدخال الخيط من يدي اليمنى إلى الإبرة المغروسة باليسرى، المهم أنني قبلت التحدي الكبير، حبست أنفاسي لمدة ساعتين أو أكثر محاولًا إدخال الخيط في الإبرة رغم الظلمة القاتمة. مع كل محاولة كنت أقول

---

(١) طاقة حديد صغيرة في باب الغرفة، يُدخل منها الطعام دونما حاجة إلى فتح الباب.

يا ربّ، يا ربّ، ساعدني. لم أكلّ ولم أستسلم مناديًا المولى عزّ وجلّ إلى أن استجاب ندائي المستمر وأهداني إلى ثقب الإبرة. شكرته وعلى عجلة من أمري قطّبت سروالي. تنهّدت، حمدت الله، فركعت أؤدي صلاة الشكر والحمد، ثم ضربت الباب.

ـ مين؟

ـ أنا ١٣ سيدنا.

ـ شو باك ولاه ١٣؟

ـ قطّبت البنطلون.

ـ ولاه عندك ضو!

ـ لا يا سيدنا!

ـ هلأ بعلّمك.

عند السادسة مساء أخرجوني للحمام، وكان الحارس يتربص بي. عندما رأى سروالي مقطبًا، أنزل فيّ العقاب الكبير، هو عبارة عن فلقة[١] في الدولاب، لأنه اتهمني بالاستعانة بنور داخل الزنزانة، فيما لم أرَ الشمس منذ أكثر من خمسة أشهر... وكان تفسير الحارس العبقري بأنني عميل من الدرجة الأولى متمرس في إسرائيل، ما جعلني أبصر في الظلام الحالك.كنت أول سجين في تاريخ فرع فلسطين يفلح في إدخال الخيط في ثقب الإبرة داخل السجن الانفرادي.

لما عدت إلى زنزانتي بعد العقاب، استقبلني رفاقي الذين سمعوا الجدل من غرفهم بالتصفيق.

---

(١) الضرب بالعصا أو الكابل على الرجلين والظهر.

قصة الجرذ

فعلًا، قبعت طويلًا في الزنزانة المنفردة، حتى بات لي في كل ذرة غبار وعرق منها قصة حزن وقنوط... ولكي أهرب من الظلام كنت ألجأ إلى الذكريات الحلوة والأليمة، غريب كيف أن الظلمة تبعث فينا الماضي!

في هذا الوقت، نما بين السجان وبيني نوع من الألفة، أو قل التعاطف الإنساني. فصار يسمح لي بالاستحمام بعدما وعدته بغسل بيجامته، كما ذكرت آنفًا، وقد تكرّم عليّ في ساعات دوامه بملعقة آكل فيها طعامي.

في إحدى المرات، بينما كنت أتحسس الحائط وأمسحه، وجدت فيه حفرة صغيرة لا يتجاوز قطرها استدارة السبّابة... كم تمنيت لو أستطيع الخروج منها. من كثرة الضجر صرت أستعمل الملعقة لتوسيع الحفرة في أسفل جدار الزنزانة، فيمضي الوقت وقصص الجدار الحزين، ومآسي من مروا به تتآكلها ملعقتي، وأنا أكافح كي لا يقتلني السأم واليأس... توسعت الحفرة حتى أصبحت مقدار ثلاث من أصابعي تدخلها. وفي ليلة سمعت صوت خربشة في الغرفة. كنت نائمًا... مددت يدي، أتلمس الظلمة علّني أعرف من أين أتى هذا الصوت فإذا بي أتلمس جرذًا. هرب هو! وجفلت أنا!

عاد بعد حين وهرب من جديد. تخيلت لو أستطيع أن أبني علاقة صداقه معه. تساءلت كيف؟ وما هي؟ آه وجدتها! كنت أعرف أن

الفئران والجرذان تحب البيض والجبن. فقررت التخلي عن حصتي اليومية منها لمصلحة رفيقي الجديد ومؤنسي في وحدتي.

بعد نحو أربعة أيام، عاد الجرذ من الحفرة ذاتها في الجدار. واقترب من يدي، سرق قطعة البيض ثم هرب راحلًا. كانت حصتي من الجبنة البيضاء توازي ثلث قطعة الـ «بيكون». وقد خيّل إليّ أنني لو أكرمت صديقي بحصتي اليومية من الجبنة فلن يخذلني أبدًا وسيعود. خبأت قطعة الجبن داخل الحفرة الصغيرة، ملفوفة بقطعة نايلون، علّ رائحتها تجذب الجرذ. وبالفعل صحوت في أحد الأيام عليه وهو يحاول سحب القطعة. ففتحت النايلون وأمسكت بالجبنة بين إبهامي والسبابة... اقترب فشعرت بلسانه يلحس أصابعي.

كان صغيرًا، وقدّرت أنني أوّل بشري يطعمه وجبة محترمة. وضعت يدي على رأسه فلم يحرك ساكنًا ولا حاول الهرب. فركت حاجبيه، فشرع يلحس راحة يدي وكأنه يقول لي: «ولا يهمك يا علي، عيش، أنا زميلك الجديد». شكرته بصوت عال كأنني أحفّظه صوتي. نما بيننا نوع من الثقة، فبات يأتيني كل يوم طلبًا لحصته، من البيض والجبن، ويبادلني الجميل فيسمح لي بمداعبته ساعات. سررت في قرارة نفسي لأنه لم يحب اللبنة، فلا أنا أموت من الجوع، ولا هو. كنا شريكين في الظلمة والجوع وانقطاع الهواء، والخوف من الشرطة العسكرية والسجانين.

استمرت صداقتنا نحو أربعة أشهر، قضيتها كلها في السجن الانفرادي، كنت أحدثه قائلًا: أنت يا صديقي حرّ تقدر أن تخرج إلى

الحريّة، أرجوك اذهب إلى حاصبيا، ادخل إلى منزلي وأخبر زوجتي أنني ما زلت على قيد الحياة، قل لأولادي إنني أحبهم وإنني أفكر بهم ولن أنساهم مهما حصل. قل لعائلتي أن تذهب إلى الزعيم وليد جنبلاط علّه يستطيع مساعدتي رغم كره السوريين له... اخرج الآن يا صديقي. تركني بعد أن عضّ يدي مداعبًا وربما فهم عليّ وهزئ مني ومن أقوالي وخرج.

ذات يوم قرر المسؤولون التكرّم علينا بثلث ساعة تحت نور الشمس، فيتسنى لهم معاينة الزنازين التسع عشرة.

كنا ممنوعين من الكلام ونحن تحت قرص الشمس. حتى النور كان مغموسًا بالذل والاحتقار، فنُضرب إذا رفعنا رؤوسنا كي لا يتعرف أحدنا إلى الآخر. أصلًا كان مستحيلًا أن يعرف بعضنا بعضًا، بعدما غيّر طول شعرنا ولحانا معالمنا تمامًا. كنا نعود إلى الزنازين وفق تسلسل رقمي، فيصيح الحارس: ١، ٢، ٣...، ١٢، ١٤...، ١٩.

توالت الأرقام، ولم ينادني أحد. أبقوني حتى النهاية، ولم أعرف لماذا...بدأت أخاف...

اتهموني بحفر الغرفة للهرب. وقلت كيف لي أن أهرب من ثقب صغير. قالوا ربما تحولت إلى جرذ يومًا ما فتهرب. حاولت الإنكار بأنني لست من َثقبَ الحائط، فضربوني.

عندما دخلت الزنزانة وجدت الحفرة مغلقة. خسرت أعز صديق لي، وأقرب كائن إلى الإنسانية عرفته منذ تاريخ اعتقالي. لم أستطع أن أبني صداقة مع أحد من السجانين وها أنا بنيتها مع جرذ بدلًا

منهم. كأن الموت لم يكن يكفيهم، صار عليّ أن أموت وحيدًا... وحيدًا من دون دفء الجرذ الذي كان يجلس في حضني ليطرد من زنزانتي شياطين الخوف والوحدة.

لعنة الله عليهم.

قضيت معظم الأوقات أفكر بما سأقوله إذا طلبوني للتحقيق مجددًا، أتخيل ماذا يسألون، كيف أرد، كيف يضربونني ولا أشعر بالألم.

أحيانًا، كنت أحاول تذكر فيلم سينمائي، أتصور نفسي في دور البطولة، أعدّل السيناريو، فأدخل ممثلين جددًا أو أنهي حياة البطل كما أشاء، ثم أعيد إحياءه... شعرت مرات عدة بأنني أسمع هتاف الجمهور مستحسنًا، ورأيت المخرج الأصلي يرمقني بنظرات حسد ولؤم. كلّ هذا ليبقى عقلي وأنشّط ذاكرتي لتبقى تعمل. تذكرت أيضًا قصصًا قرأتها بالعربية، وصرت أتمرن على نقلها إلى الإنكليزية كي لا أنسى الكلمات. كنت أغمض عينيّ المغمضتين أصلًا، لأبحث ساعات عن كلمة تتوه مني، أقلب صفحات القاموس بمخيلتي، وأبحث عنها بين الكلمات إلى أن أجدها، ويا لسروري ساعة أجدها. أشعر بأنني انتصرت على الظلمة والظلم معًا. أعتقد أن هذا ما حال دون إصابتي بالجنون... ولكنني بقيت منسيًا في الانفرادي، لا محققون ولا محكمة، ولا باب يقرع، كأنني غير موجود، فقط الظلمة والنتانة ورائحة العفونة والوسخ كانت رفقتي الدائمة. كنت أسترق السمع أحيانًا، حين كان السجناء يسألون الشرطة عن الفرج: قال أحد رجال الشرطة إن الموقوف يبقى إما ٣ أو ٦ أو ٩ أشهر، وبعدها ينقل

إلى التحقيق العسكري ومن هناك يطلق سراحه أو يحوّل إلى مكان آخر... وبهذا اليوم أتممت ٩ أشهر، ٢٧ أيلول ١٩٨٨، تذكرت هذا التاريخ... يلاّ! قلت محدثًا نفسي، أنا جاهز... وفعلًا أتى الفرج وصدر أمر في تحويلي إلى سجن آخر.

فرع التحقيق العسكري

انتقلت إلى فرع التحقيق العسكري... وظننت بحسب ما أوحى لي المحقق أنه سيطلق سراحي.

كنت برفقة ١٣ شخصًا بينهم تسعة لبنانيين، (علمت في ما بعد أنهم حرروا بعد أن استكملوا مدة السجن)، وثلاثة سوريين، فجلسنا في غرفة واحدة إلى أن أُخذت لنا الصور وأُعطينا فيشًا وأرقامًا للتحقيق. حوّلوني بمفردي إلى الغرفة الرقم ٥ فيما توزّع الباقون على الغرف المتبقية...فازداد عدد نزلاء الغرفة واحدًا، وأصبحنا ١١٢...

كانت المرة الأولى منذ عشرة شهور أجلس فيها مع أناس بعد عناء السجن الانفرادي. فصعقت للضجيج والصخب والتدخين... دخنت سيجارتي الأولى بعد طول انقطاع...

ما إن أجلسوني في إحدى الزوايا المحشورة حتى انهالت علي أسئلة المسجونين: شو التهمة؟ شو عامل؟ معك فلوس؟ شو معلّم؟ بدك تخرج؟ محكوم أو لا؟ شو بتعتقد بيكون حكمك؟

أسئلة بعضها سخيف والبعض الآخر مهم...

لم أقل سوى أنني لبناني، متسائلًا كم واحدًا من أبناء وطني يشاركني الزنزانة... كنا أكثر من عشرين، بينهم الشاويش[١].

ذهبت إليه وعرّفته بنفسي، وإذا به من الجبل ولنا أصدقاء مشتركون. فدعاني إلى النوم إلى جانبه... دعوةُ شَرَفٍ عَنَتْ لي الكثير، بخاصة حين لا يستطيع السجين النوم بغير القطار المستقيم أو الكرسي، (أي أن يجلس الموقوف على قاعدته ويجلس رفيقه أمامه ويضع رجليه عليه وهكذا دواليك إلى النهاية وسُمّيت بالقطار، والكرسي مختلفة تمامًا حيث يجلس السجين على قاعدته ورفيقه يقعد على ركبتيه والتالي مثله إلى النهاية).

ينام الشاويش على ظهره ويمد رجليه، أي أنه ينعم بنصف متر للنوم، فاعتبرت حظي من السماء لدعوته إياي. كان مضيفي عضوًا في الحزب التقدمي الاشتراكي وعلمت في ما بعد أنه غادر السجن بعد سنة ونصف السنة، بعد أن سحبه وليد بك جنبلاط...

ـ إنشاء الله يكون حظّك حلو ويحولوك إلى المزّة. أمّا يا علي إذا كان حظك خر... بتروح ع تدمر...

ـ شو تدمر؟

ـ ... جهنم الحمرا. اسمع، معنا واحد هون جايي من تدمر العسكري مش السياسي[٢]... جاء ذلك الأخير وأخبرنا عن معاناته...

---

(١) السجين المسؤول عن إدارة قاعة السجن.

(٢) يقسم سجن تدمر إلى جناحين رئيسيين، واحد للسجناء العسكريين وآخر للسجناء السياسيين.

وفي النهاية السجن السياسي أصعب بمئة مرّة من السجن العسكري...

ـ أنا كنت سخرة، وسجن تدمر موت أحمر... أرخص شي هناك الموت. يا رب استر.

تظاهرت بعدم الاكتراث:

ـ جئت كي أعود إلى لبنان، وليس إلى أي سجن آخر...!

ضحك اللبناني، وتابع نزيل تدمر السابق... بسرد روايات وقصص يشيب لها شعر الرأس، لبشاعتها وقرفها. أحسست بالغثيان وبدأ العرق يتصبب من جبيني. لاحظ ذلك صديقي، فأسكت التدمري وأمره بالرجوع إلى مكانه. بدأت أتظاهر بعدم الاكتراث من تدمر التي أبغضتها قبل أن أعرفها. ولكن، داخليًا كنت مستاء جدًا وكانت الأحلام المزعجة لا تفارقني أبدًا.

مرت تسعة أيام وأنا قابع في فرع التحقيق. فإذا بالباب يفتح في الثانية صباح اليوم العاشر. ينادون باسمي! قال رفيقي: حظك مأير يا علي الله يكون بعونك، تدمر... بدأت بتحضير نفسي للرحيل فودعت زملائي على وقع بكاء صديقي من الحزب الاشتراكي في فراق مُرّ لن أنسى تأثيره الحزين في نفسي. فأعطاني ما معه من مال وقليلًا من الثياب كان قد جمّعها بسرعة:

ـ إنشاء الله شوفك بخير، انتبه...

عانقته باكيًا فيما نظر المساجين إليّ بشفقة لم أفهمها... إلّا في

تدمر. جمعونا في غرفة: ثلاثة وعشرون شخصًا وأنا بينهم اللبناني الوحيد. من بين هؤلاء ستة عشر معتقلًا، باع أولهم سلاحه الحربي من طراز كلاشنيكوف إلى الثاني... وهكذا دواليك وصولًا إلى المعتقل السادس عشر... الذي قتل جاره بالسلاح، فقبض على الجميع... حوكموا بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات، في حين نال الأخير حكمًا بالإعدام.

انطلقت القافلة إلى تدمر عند الرابعة. كُبّلت أيدينا وأرجلنا بالجنازير، وحُجبت أعيننا بالعصابات تحضيرًا للانتقال إلى مثوانا الأخير، كما سمّاه المسؤول المساعد الذي كان في استقبالنا. دخلنا منكّسي الرؤوس رغم كل الحديد الذي يعوّق حركة الدم في أجسادنا... وكأن الساعات الثلاث والنصف من الضرب واللطمات لم تكفِ، فقد نلت نصيبي من «السحسوح»، والركلات وقد أنعم عليّ سوء طالعي بموقع قريب من الحارس في المقعد ما قبل الأخير من البوسطة. وللاستقبال الرسمي حساباته الخاصة: إذ توجّب علينا المرور بين عشرين شرطيًا وقفوا على جانبي الدرب بكامل عتادهم: كابلات عريضة، قشط[١]، قضبان حديد بقطر ستة ملم[٢]... باختصار شديد: كل ما يؤلم مسموح. كانت معركة حسمت بالكامل لمصلحتهم لعدم التكافؤ. كنا نقع أرضًا، تارة نلطم الحائط وطورًا نقبل الأرض، ليوقفنا

---

(١) أي شيء يشبه الحزام. فلقد تكون أداة الضرب «قشاط مروحة» لآلية عسكرية أو حزامًا عاديًا.

(٢) في العادة يُلوى رأس القضيب المعدني بزاوية ٩٠ درجة بحيث يمكن أن يُستعمل للأذية عن بُعد.

الإخوان بلطمة أو شدة شعر تخطف من أعيننا الكفيفة ما تبقى لها من نور... وتنطفئ الدنيا... ومعها الأمل ببعض الكرامة والإنسانية... ولم نعد نعلم أي صنف من المخلوقات نحن... وإن كنا حقًّا من البشر. وضعي كان سيئًا جدًا، أنزف من جرح فوق عيني، وقد كسر أنفي... كل ذلك بأقل من خمس دقائق... أجلسونا القرفصاء ثم سمعنا صوتًا مدوّيًا يقول:

- منيـ...، إنت ولاه! ولك حيوان إنت...!

كل واحد منا يظن أنه هو الحيوان المقصود...

في النهاية وقفنا إلى الحائط فأتى أحدهم وفك قيودنا تاركًا العصابة ثم صاح بلهجة خطابية:

- اسمعوا ولا حيوانات...!

خطاب الاستقبال

أيها المنايك والحقيرين والكلاب الكرام،

لقد أتيتم إلى مثواكم الأخير. حيث ستموتون ميتة الكلاب وتُسحبون كالبهائم بعد موتها. لكنْ، أنتم يا أوسخ البهائم سنسحبكم ونجرّكم وأنتم أحياء وبذلك ميزة حسنة لكم، ستتقاسمون حصّ الزيتون، الجوع والخوف والجرب رفيقكم.

هنا جهنّم الحمراء كما تسمونها في أديانكم... لا تنتظروا الرحمة والرأفة منا ولا من الله لأنه لا يدخل إلى تدمر ولكم في كل يوم

«قتلة»[1] مثل اليوم إلى أن تموتوا... وإذا مات أحدكم فسيدفن جنبكم في جورة من البراز.

أيها الكلاب... قولوا حاضر!

ـ حاضر.

إذا استحلى شي عسكري واحد منكم مسموح له ينيـ...ـه وللشرطي الحق في أن يفعل بكم ما يشاء... كلمة «لا» ممنوعة في قاموس تدمر... حاضر حضرة الرقيب هي الكلمة الوحيدة التي تقال هنا... ممنوع حدا يطلّع بالشرطي وإلاّ تُفقأ عيناه!

أبقوا أيديكم دائمًا خلف ظهوركم، راسكم واطي ع طول. إنتو ما عملتوا شي بيرفع الرأس... منشان هيك وطّوا رووسكم على طول... أنتم حثالة المجتمع. ونحن في الشرطة العسكرية لا نرحم أحدًا... فلا تطلبوا الرحمة.

نحن من لا قلب لهم، ونحن الشرطة العسكرية، أوسخ من بالجيش وفصيلتنا هي الأقذر. فلو وجدوا من هو أسوأ منا لجلبوهم إليكم فورًا.

انتهى الخطاب...

– ولاه وين التصفيق؟! وقفوا ولاه...صفقوا.

فصفقنا له مكرهين استحسانًا لرقة كلامه وعذوبة عباراته...

---

(١) الوجبة من الضرب المبرّح.

هنا، أمر الشرطة أن ترينا شيئًا من حسن الضيافة، ثانية بدأنا بالصراخ والعويل والاستنجاد بالله والأنبياء الذين لا يدخلون تدمر كما سبق وقال... انتهت المجزرة الثانية بـ١٠ دقائق ليمسح كل منا دماءه الجارية من كل مكان... بدأت حلاقة الرؤوس والشوارب حلاقة تامة، إذ تمنع تربية الشعر منعًا باتًا فبتنا كصغار الفئران. لا شوارب ولا شعر للحواجب أبقوا لنا... نقلنا بعد ذلك إلى التعذيب بالدولاب، وكنت في نهاية الصف فسمعت أصدقائي ممن سبقوني ينزلون ثلاثة ثلاثة بأمر من الضابط المساعد... تطبع بعدها جلدات الكابل المئتين على جلودهم...

جاء دوري وقد يبست الدماء عليّ لشدة ما نزفت. فدخلت الدولاب وقلبوني على ظهري إلى أن أصبحت رجلاي في الهواء. نزلت عليّ الضربات من كل صوب، أحصيت حتى اللطمة الثلاثين بعد المئة... ولم أعد أشعر بشيء. فقدت الوعي فتوقف العنف. سمعت من قال قف، لم أستطع. جُررت إلى جانب رفاقي، وبهذا كنت أقلّ رفاقي جَلْدًا.

وقفنا بصعوبة ونحن نتراقص من الألم والورم، ومشينا إلى المهجع الأول في الباحة الثالثة. هنا حملت الرقم ١٥.

أمرنا الرقيب بمواجهة الحائط مع الإبقاء على انحناءة الرؤوس، فامتثلنا وأيدينا خلف ظهورنا.

ـ من منكم عسكري؟ وما رتبة كل واحد؟

كانوا خمسة جنود، بينهم رقيب ورقيب أول وثلاثة عسكريين.

فتحول الرقيب أول رئيسًا للمهجع، على أن يلزم باقي المساجين الالتزام بقوانين المعتقل التي زودنا بها خلال الاستقبال فيمنع النظر إلى الرقيب أو استخدام الحمامات ليلًا.

أما النوم فعند الساعة السادسة مساء والاستيقاظ عند السادسة والنصف صباحًا.

عند فتح باب الزنزانة، على الجميع التوجه إلى الحائط. أما رئيس المهجع فيتقدم صف الواقفين وكأنه في الجيش فيأمرنا بالاستراحة أو الاستعداد[1]. بهذا يصبح المهجع جاهزًا للتفتيش، على أن أي غلطة منا أو من رئيس المهجع تكلف صاحبها حياته.

ومن أعراف السجن وقوانينه أن الطعام يوزع بالتساوي على الجميع، والاستحمام إجباري بصورة يومية.

يتم التفقد خارج الزنزانة في الصباح، فنصطف كل خمسة مساجين ويلينا خمسة آخرون... وهكذا دواليك.

- قدّم الصف ولاه...

- استرح... استعدّ. المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب أول.

انتهى التفتيش وخرج السجّان. وإذا بنا في غرفة قذرة بقياس ٥,٧٥ ×١٤، مزودة بجورتي حمام مع بعض الغالونات لتعبئة المياه...

---

(١) نظير الحركات التي يقوم بها العسكر: تراصف، استعدّ، استرح، إلخ...

في الأرض وعلى الجدران آثار للرصاص والدماء، (للتعذيب الإضافي)، وكأن الترهيب النفسي هو القاعدة الذهبية التي يغفل الجميع ذكرها، عن خوف ربما أو لأنها أصبحت بديهية لدرجة بات من السخف التذكير بها. طبعًا، أوَليس الداخل مفقودًا والخارج مولودًا؟ أما ما بين الحالتين فضياع مطلق في جهنم تحدّت نيرانها ملائكة الشر، فكوتنا وأحرقت فينا الإنسانية والحق بالعيش... العيش لا غير.

علمنا بعد حين أن هذا المهجع كان ساحة مجزرة بحق الإخوان المسلمين.

وقعت هذه المجزرة في عام ١٩٨٠، بعد أن حاول أحد الإخوان اغتيال الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد بإلقاء قنبلة يدوية على موكبه. فما كان من حارس الأسد إلا بأن رمى بنفسه فوق القنبلة، مفتديًا الرئيس بنفسه... وقضى. عندها تحرك رفعت الأسد شقيق الرئيس، وكان حينها مسؤولًا عن القوات الخاصة، فأمر سربًا من الطائرات المروحية بالتوجه إلى سجن تدمر لتصفية الإخوان المسلمين المعتقلين فيه...

نزل العسكريون إلى باحة المعتقل وبدأوا بإطلاق النار عشوائيًا باتجاه غرف الإخوان المسلمين، المسالمين، من الأبواب والشبابيك... لم ينجُ إلّا القليل من الإخوان في ذلك اليوم المشؤوم... أما الذين سلموا من المجزرة، ولم يتعاطوا معهم، فهم أعضاء حزب البعث العراقي المعتقلون حيث كانوا في مهاجع أخرى مفصولين عن الإخوان المسلمين، والذين نقلوا ما شاهدوا من شاحنات تنقل

الجثث إلى مقابر جماعية سيكشف النقاب عنها في يوم من الأيام... وهو ليس ببعيد...

بقيت مخلفات المجزرة على الجدران والسقوف، فكنا نرى بكل وضوح الدماء اليابسة والمتخثرة بأشكال هندسية تزرع الرعب والهول في قلوبنا ونفوسنا المحطمة. أما آثار الرصاص على الأرض، فتدل على أن الجريمة حصلت فيما كان المساجين منبطحين... منهم من حاول الهرب إلى الحمام دون جدوى... إلى أين المفر، لم يبقَ من يخبّر... قُتلوا جميعًا، بدم بارد، فيما أهاليهم يحلمون على شرفات منازلهم ويضيئون الشموع منتظرين عودة أبنائهم... آبائهم... ولكن لا حياة لمن تنادي...

كانت الحرامات العسكرية نتنة لدرجة باتت زيتية الملمس، وكأنها مشبعة بالسمنة أو ما شابه. ولكنها رغم كل شيء أنظف من الأرض التي كانت تكسوها طبقات من الدم والقيح معًا والتي تحول لونها مع الزمن إلى سواد زيتي مع رائحة نتنة لم أشمّها من قبل. وكانت الأرض غير مستوية، فيها حفر صغيرة وكبيرة لا شك في أن الرصاص قد فعل فعلته بالمساجين وبها معًا. ولشدة الألم والإعياء تخيلناها فرشات عالية الجودة...! إلا أن دفء الطقس ساعدنا في التخلي عنها موقتًا.

بعد أن وزع رئيس المهجع علينا البطانيات، وعيّن لكل واحد منا مكانه، جلسنا على الأرض، مع أصوات الأنين والبكاء والعويل، أرجل الجميع مفتوحة من الضرب، الدماء تسيل. لا يوجد لدينا مطهرات

ولا قطن ولا شاش. حتى إن البعض لا يستطيع التنقل أو الدخول إلى الحمام، ندبنا حظنا وضحكنا على قدرنا.

عندما جاءنا العشاء، وهو الأفخم في تاريخ السجن، لم يتمكن أحد من الأكل لشدة الألم، فاكتفى البعض بالتفاح فيما تنعمت أنا، الأقل تعذيبًا يومها، بفرّوج كامل مع تفاحات عدة.

في الصباح التالي، لم نعرف كيفية تنفيذ تعليمات اليوم الأول للأسر التدمري. طبعًا، لم ننسَ ما قاله الرقيب من أن التفقد يتم بالخارج، وأن الاصطفاف يكون بالخمسات... وبما أن الفكرة لدى رئيس المهجع لم تتبلور بالشكل المطلوب، أتت الشرطة بالكابلات وتولت تعليمنا بطريقتها الخاصة. لم توفرنا السياط، كما لم ترحمنا اللكمات العنيفة ولا الركلات. وفي نهاية الأمر تعلمنا الاصطفاف... ولم أنسَ حتى اليوم كيف...

والأيام تمر بطيئة، جالبة معها الخوف إلى قلوبنا التعبة... أخذت نفوسنا بالاضمحلال حتى الانهيار ولم نعد نهتم للشتيمة والعنف... وقد بات العذاب خبزنا اليومي.

بعد شهرين انتقلنا إلى مهجع آخر، مكثنا هناك مدة سنة ونصف السنة، نُقلنا بعدها إلى المهجع الرقم ٨ في الباحة الثانية وقد مررنا في الباحة السادسة لنعود من جديد إلى الرابعة...

تعرّفت إلى أكثر من ٣٠٠ شخص من الإخوان المسلمين الذين حاولوا القيام بانقلاب عسكري على نظام الرئيس حافظ الأسد، ففشلوا... وزُجّ بأعداد كبيرة منهم في السجون.

قُتل وفق الروايات أكثر من ١٠ آلاف مدني، ودُمّر قسم كبير من مدينة حماه بالجرافات وقصف الطائرات... وقضى الضحايا تحت الأنقاض. أما الذين ما زالوا على قيد الحياة، فانتزعت منهم الاعترافات بشتّى وسائل التعذيب والقمع والهلاك. مات المئات خلال التحقيق وشُلّ العشرات، أي «انعطبوا» في لغة السجون... أما القسم الأخير فقبع في ظلمة الزنزانات من دون محاكمة ومنهم من لقي حتفه بعد سنوات... وكان بريئًا... ويروي أحد هؤلاء الأبرياء ما يأتي:

كان آمر سجن تدمر من ١٩٨٢ حتى ١٩٨٦، واسمه العقيد غازي، يتفقد جميع المساجين كلًّا في باحته. وبوصوله إلى الباحة الثانية... سأل المساجين:

ـ مين عندو مطالب؟

ـ سيدي رغيف ونصف بالنهار غير كافي، بدنا تزيد الحصّة بالخبز والبرغل...

ـ ليش ما فكرتوا لو صح الانقلاب معكم شو كنتوا بتطعمونا؟ ولاه، نحن أحسن منكم ما قتلناكم! وبدّك تطالب بأكل؟... غيره...!

ـ بدنا دوا، عِنا مرضى في حاجة ماسّة إلى الدوا...

ـ «إنشاء الله»! بس إنتو خففولي الموت شوي! ولاه شو صايرلكم بتضلكم «توقعوا بالحمّام»[(١)]؟

---

(١) الوفاة نتيجة «الوقوع في الحمام» هو الحجة الرسمية للوفيات الناجمة عن الضرب والتعذيب.

ورفع أحدهم يده:

ـ سيدي أنا محكوم بريء، وقال لي القاضي عندما أصدر الحكم عام ١٩٨٠ «براءة»... وصرلي ٤ سنين وما أفرجوا عني...

ضحك العقيد غازي، وقال آمرًا مساعديه...

ـ خذوه إلى مهجع البراءة...

وعرفنا عندها أن هناك أكثر من مئة سجين ظهرت براءتهم ولا زالوا رغم ذلك قيد الاعتقال...

فأخفض الأبرياء أيديهم، علّ «سجن البراءة» أصعب من زنزانة المحكومين... من يدري...؟!

أمين ومأمون... بين الموت والموت

... أخبر مأمون قصته أمام نزلاء المهجع المئة وعشرة، كلهم من الإخوان المسلمين. وقد نقلوها بدورهم إلى باقي المساجين. أما أنا، فقد سمعتها من صديق مأمون المقرّب. ومفادها أن «أمين ومأمون» متهمان برمي قنبلة يدوية على دورية للجيش السوري... طبعًا مأمون ينفي ذلك. إلا أن الشقيقين، وتحت التعذيب الشديد، اعترفا بالذنب. والملفت أنه رغم وجود فوارق بالتواريخ والتوقيت أُخذ باعترافهما! وفي موعد المحاكمة الجماعية حيث يحكم في اليوم نفسه أكثر من خمسين متهمًا، دخل أمين أولًا وأنكر ثم ما لبث أن اعترف تحت وقع التهديد... ثم دخل مأمون واعترف أسوة بأخيه. نادى القاضي العسكري ليدخل أمين، وقال لهما:

ـ أنتما أخوان وأحدكما رمى القنبلة... أشفق على أهلكما. لذا سأشنق واحدًا فقط. من منكما يريد الموت فدى المنايـ...؟

فصرخ الاثنان معًا:

ـ أنا سيدي...

ـ أريد واحدًا منكما. معكما دقيقة لتقررا... وإلا أشنق الاثنين معًا... اخرجا وبدقيقة اتفقا على واحد منكما...

وتوجه مأمون إلى أمين:

ـ يا أخي أنت متزوج وعندك طفلة بحاجة إليك، ومعها زوجتك...

ـ والله ثم والله، (وهو قسم كبير عند الإخوان)، أنا سأشنق. أما أنت، فوصيتي أن تتزوج زوجتي وتهتم بابنتي، لأنك لم ترَ الحياة بعد، أما أنا قد اكتشفتها قبلك.

هكذا دخل الاثنان معًا وقال أمين:

ـ أنا سيدي ألقيت القنبلة وإذا بقيت هنا سألقي عشرات غيرها...

فأجاب القاضي ساخرًا: «خذوه! تقلوا له الوزن...!»[١].

وهكذا شنق أمين وبقي مأمون. وفي عام ١٩٩١ أخلي سبيله وعمل على الوفاء لوصية أخيه...

---

(١) خلال عملية الإعدام شنقًا يقوم أحدهم بشدّ المحكوم إلى أسفل. تثقيل الوزن عبارة عن تسريع عملية الإعدام.

قصة البقرة والطبيب

كان طبيب بيطري من الإخوان المسلمين يعمل في القرى. وفي عام ١٩٧٨، أي قبيل محاولة الانقلاب، أرسل أحدهم بطلبه ليولّد بقرة في إحدى القرى المجاورة. ولسوء حظه، كانت ولادة البقرة عسيرة ففشل في إنقاذها. نفقت البقرة وعاش العجل...

استاء أصحاب البقرة وكان أحدهم كاتبًا في المحكمة العسكرية... توعّد وقال للطبيب: «اللـه لا يوفقك، قتلتها لأنها لنا». أقسم الطبيب بأن عمرها ولّى، وهي مشيئة الله.

واندلع القتال بين السلطة والإخوان... وقبض على عشرات الآلاف، بينهم الطبيب البيطري. وعندما تقدّم الطبيب أمام المحكمة العسكرية حيث الكاتب سئل عن دوره في القتال...

اتهمه القاضي بإطلاق النار على دورية للجيش رغم إصرار الطبيب أنه لم يكن ليقوم بغير واجبه المهني المتمثل بإنقاذ الحيوانات. وفي النهاية، اقتنع القاضي ببراءته... فتدخّل الكاتب:

ـ يا سيدي هذا الحقير قتل بقرة لي لأنني عسكري... وهو يكرهنا... ويكره النظام.

فردّ القاضي:

ـ صحيح ولاه؟

ـ نعم، ولكن البقرة نفقت قضاء وقدرًا.

ـ وأنت ستشنق قضاء وقدرًا. أخرج ولاه حيوان!

زجّ الطبيب في المهجع وروى ما جرى له... فخلّص ذمته... وتلا صلواته ثم دعا الله...

...شُنق في الأسبوع نفسه، يوم الأربعاء... فقُتل فداءً للبقرة... وليس للعروبة أو للثورة أو للحق...

وهناك أيضًا قصة أحد الآباء وابنيه الاثنين. وحدث له ما وقع لأمين ومأمون، إذ كانوا متهمين بالانتماء إلى التنظيم المذكور، وأن الابنين من المحرّضين الكبار ولهما خليـة كبيرة وقد اشتركا بشن هجمات على الجيش والحرس... وحين شعر الأب بالخطر يحيط بفلذتي كبده قال للقاضي:

ـ سيدي أنا كل القصة، وولداي لا يعرفان شيئًا. أنا رميت القنابل، أما هما فلا تربطهما أي علاقة بالموضوع من قريب أو من بعيد، ما خلا أنهما يحضران بعض الحلقات الدينية التي أنظمها بنفسي في البيت.

شُنق الأب.

... حدثت في السجون عشرات القصص التي يشيب لها شعر الرأس مع المحققين...

وكأن القانون فُصّـل على مقاسهم...

فهل من يحاسبهم؟ وهل يتجرأ أحد الإخوان المفرج عنهم على الإدلاء برأيه ليحاكم العابثين بأرواح الناس؟

حلاقة تدمر بين القديم والحديث

للحلاقة القديمة يومها الأسود... لكأن من لعنة السجون أن تكون لكل نبضة حياة ضريبتها، ولكل طلعة شمس حصّتها من العذاب والقنوط... فيخرجون الأسرى بالعشرة الواحدة، ويوقفونهم بحالة تأهب تام، رافعي الرؤوس وأيديهم خلف ظهورهم... وكانت الأوامر تقضي بعدم الحراك لأن المخالف «يعرف مصيره»، فإذا بنا نأكل نصيبنا من التشطيب على هوى «البلدية»، وهو سجين عسكري معاقب يؤتى به للعمل بالسخرة بدلًا من العسكريين. كما أنه عادة أقسى وأحقر من الشرطة، إذ يقوم بتعذيب المساجين خوفًا من أن يعاقب هو، فينقع ذقوننا جميعًا، بالدور ليعود بعدئذ إلى الأول فيحلق له بالموس. وكان عليه أن ينهي الحلاقة خلال نصف دقيقة للشخص للواحد. فيشطبه يمنة ويسرة... الكل يُدمى... ومن ينجُ من جرح الشفرة يجرحه الرقيب بالكابل، مجزرة أسبوعية روتينية لا أنساها.

وبعد، فالحلاقة الحديثة تتم بآلات حلاقة يدوية، نشتريها بمالنا الخاص لتدور على السجناء جميعهم في المهاجع... والحلاقة الأسبوعية إجبارية للرأس والذقن... وبما أنها تستخدم لخدمة أكثر من سبعة آلاف سجين سياسي، فمن الطبيعي أن تقرّط الشعر وتنتفه... أما جرح الرؤوس فحدّث ولا حرج...

أما إذا صادف أن انكسرت إحدى الآلات فتكسر يد الحلّاق فورًا...

طبعًا، لا يوجد زيت... لذلك استخرجنا السمنة الحمراء كالمرقة

من على جوانب الأوعية... والطريقة الحديثة على قساوتها أرحم بكثير من نظام الحلاقة بالشفرة.

كوابيس الأحلام

في الأسر تكثر الأحلام ويكثر مفسّروها. وكما جرت العادة عند الفقراء، تصحو الزوجة لتقول: «حلمت بأن لي بيتًا كبيرًا، خدمًا وحشمًا، وأتى رئيس الجمهورية وقبّل يديّ...» وتكرّ السبّحة فيصحو الأولاد ويخبر كل بدوره ما رأى في حلمه. ويبدأ التفسير: «المال يعني القمل... الأكل مش منيح... اللون الأصفر كذا...!».

أمّا في السجون فلتفسير الأحلام لذّته الخاصة. وإذا حدث وصحّ تفسير حلم ما، يصبح للمفسر كيان مهم، ويسأل يوميًا عن الأحلام:

- السلام عليكم! شو؟ هات خبّرنا، شو حلمت اليوم؟

... أحدهم رأى الرئيس الأسد ميتًا والمساجين يمشون في الجنازة، يضحكون ويصفقون... انتهى الحلم، ففسّر بأنّ المساجين غالبًا ما يفكرون بأنهم لن يطلقوا إلّا إذا مات الرئيس الأسد.

وكان في المهجع سجين مجنون، وقد توفي خارج السجن بعد إطلاق سراحه بسنة... وعند إدخال الطعام صباحًا طلب رؤية الرقيب الذي قال له:

- شو كريزة؟ (وكريزة هو اسم السجين المجنون)؟

- سيدي... في واحد شاف الرئيس بالحلم ميّت وإنّا ما منطلع من السجن إلاّ إذا مات الرئيس، هل هذا صحيح سيدي؟

هنا، تصّرف الرقيب بحنكة وإدراك تام، وقد أراد أن يرى الجميع مدى محبته ووفائه للرئيس. فقال لرئيس المهجع:

ـ مين شاف الحلم؟

ـ أنا سيدي...

ـ عند التنفّس[1] ذكّرني بحالك، مفهوم ولاه؟

ـ حاضر سيدي...

وعند التنفّس أتى الرقيب المذكور... ومعه الدولاب وقال للحالم يا منيـ... انزل بالدولاب ولاه... لو ما إنت عمّال تفكر بالرئيس ما حلمت هيك يا كلب...! وكان عقابه ثلاثمئة جلدة... فقط لأنه رأى الرئيس في منامه.

يروي أحدهم أنه رأى يومًا عنترة بن شداد راكبًا على حصانه يسلّ سيفه بيده... هاربًا من الرقيب الذي لحقه ومعه كابل ليجلده... وفسر الحلم بأنه لو وجدت تدمر وسجنها العسكري أيام عنترة بن شداد، لما كان العرب سمعوا بعنترة... ولا ببطولاته...

وحلم أحدهم بأنّ ذئبًا هجم على القصر الجمهوري ومرّ بين الحرس من دون أن يراه أو يشعر به أحد... وخرج حاملًا بين أنيابه أحد أبناء الرئيس... وبعد أن ابتعد الذئب قليلًا بفريسته تنبه الحرس، فأطلقوا النار عليه، وسمع دوي الرصاص في كل أنحاء

---

(١) يفترض بـ«التنفس» أن يكون لإخراج السجناء من الزنزانات ولكنه ينتهي عادة إلى ١٥ دقيقة من الضرب المبرّح.

سورية. انتهى الحلم؟ فظن أحدنا بأن كارثة ستحل بالقصر، وأن أحدهم سيصاب بأذى. تناقل المساجين الحلم حتى وصل الخبر إلى الإدارة.

ووقعت الكارثة بموت نجل الرئيس، البكر المهيأ ليخلف أباه... باسل الأسد...! فما كان من الإدارة إلاّ أن أرسلت بطلب من رأى المنام ومفسّره... وعوقب بشدة لمدة طويلة...

بعد ذلك أقسم الجميع بأن يحلموا ولا يفسروا رؤاهم... حتى ولو كانت عن زوجاتهم وأولادهم...

طبعًا، أروي هنا ردّ فعل إدارة السجن والسجّانين الأغبياء، الذين ينزلون العقوبات بنا، خارقين حقوق الإنسان والإنسانية كلها، («من دون معرفة من المسؤولين»!...) فالحقيقة مقدسة وتقال...

وكان (المرحوم) باسل قد أطلق حملته الشهيرة ضد الفساد كائنًا من كان المذنب، بدءًا بأقرب المقربين إليه.

هكذا، شغل أكثر من ثمانمئة سجين من مهربين، لاعبين بأمن البلاد واقتصادها، وكان بينهم ضبّاط كبار ملأوا جناحين كاملين من سجن صيدنايا... بينهم رجال أعمال وأقارب المرحوم باسل إلى سائس خيله ومدرب الفروسية الخاص به.

وبعد وفاة الفارس المرحوم أتت إدارة سجن صيدنايا بالسائس. وبدأ الشرطيون بجلده، وضربه وشتمه إلى أن حوّل إلى سجن تدمر كتدبير فوري من دون «علم المسؤولين الكبار»...

لقد أساءت تصرفات إدارة السجن الرعناء ضد المعتقلين، إلى النظام أكثر مما فعل الحكم القائم(؟).

وبدوري أسجّل هذا الموقف من موقع شاهد عيان... وقد أمضيت في السجن ١٣ سنة عايشت خلالها الغباء، والمزاجية والبطش حتى من أقلّ المسؤولين رتبة وأهمية.

قلع الأضراس والأسنان في تدمر

وجع الأسنان معروف بصعوبته... بخاصة في غياب المسكّنات أو عقاقير معالجة الألم... وفي «الحريّة» قد يستعين المريض بقطنة من العَرَق، أو يأخذ حبة أسبرين إلى أن يزور الطبيب المختص... أمّا داخل السجن، وبصورة خاصة سجن تدمر، فعلينا أن نتدبر أمرنا بغير ذلك.

وشاء سوء حظي أن يؤلمني ضرس متورم لدرجة أنّي لم أعد أستطيع تحريك فكّي. فبتّ أتوجّع حتى عندما أفتح فمي لتنشّق الهواء... كان بيننا في المهجع سجين له خبرة بقلع الأضراس غير مرة، فذهبت إليه. وعندما ألقى نظرة داخل فمي قال:

ـ تعال غدًا ليكون الورم قد خفّ قليلًا.

ـ ولكنني أتألم بشدة!

ـ تعال غدًا.

الموعد إذًا، في الصباح التالي بعد التفقد...

جهزت نفسي: فحضّرت قميصًا قطنيًا عتيقًا ومزّقته قطعًا صغيرة بعد غسله بالصابون... ثم جدلت حبلًا بطول ١٢٠ سنتم تقريبًا من خيط نايلون من إحدى الكلسات القديمة. وجهّزت نفسي لتحمل الألم نتيجة قلع ضرسي المريض...

استلقيت على ظهري وأسندت رأسي إلى ركبة «الخبير»:

ـ افتح فمك وضع العمّاية على عينيك...

شعرت... بقطعة حديد، (وكانت يد مقص الأظافر بعد أن بردت على الحائط، فأصبحت في شكل مشرط تفصل بواسطتها اللثة عن الضرس)، تشق طريقها داخل فمي.

نشّفت الدماء بقطعة من القميص القطني. لا بنج ولا من يحزنون، واستمر الطبيب بمحاولة فصل اللثة... فيمسح الدماء مرة أخرى ليتمكن من رؤية ما يفعل، ثم يضع يده في فمي...

يحاول هزه يمنة ويسرة... تخلخل الضرس... تحرك قليلًا...

وأنا أتألم ولا أستطيع الصراخ مخافة مجيء الرقيب... أشدّ بيدي على الحرام فيما جلس أحد رفاقي على ركبتي، وثبّت آخر رأسي... حالتي بالويل... لفّ الخبير الحبل داخل فمي حول الضرس وشدّه إلى الأمام والخلف بنتعة جبارة خطفت روحي معها... لملم الدماء مرة أخرى...

ـ اتكل على الله...

أومأت برأسي وأنا أشد على نفسي...

ـ افتح فمك جيدًا... وضع رجليه على كتفي وشدّ الحبل من جديد، فخرجت مني صرخة ألم صماء تمردت على هلعي...

ـ انحلّت إنشاء الله... مرة ثانية أو ثالثة وبتخلص...

نور أبيض لمع في رأسي... فأبصرت الضوء في عينيّ المغمضتين بالعمّاية... مسح الدماء، وشد ثالثة، فخرج الضرس معلقًا بالحبل فيما الخبير يلوّح به منتصرًا. ثم مسح الدماء ووضع قطعة قماش في البقعة الجوفاء من فمي...

ـ عضّ... شدّ وما تفتح فمك إلّا بعد ساعة...

رأيت الضرس بجذوره الثلاثة مهترئًا، وكانت هذه تجربتي الأولى مع الطبابة المستحدثة من روعة السجون...

و«طبيب الأسنان» حاز خبرته الواسعة من خلال تمرسه بالعمل في أفواه المعتقلين، بحيث اقتلع أكثر من مئة ضرس وسن. وفي إحدى المرات اقتلع ضرسًا من الفك الأسفل لجهة اليمين.

فقال له المريض:

ـ شو رأيك لو ترجعه إلى مكانه؟ إنت قطعت العصب ما بيوجّع مرة ثانية!

ـ فكرة! ولكن بشيل السوسة والوسخ... وبرجعه...

وهكذا حفّ الضرس على الحائط من جوانبه الأربعة ثم نظفه بالصابون... وبإبرة صغيرة، تحايل عليه ونخره ونظفه ثانية من دون أن يمس جذوره المتشعبة.

ـ افتح فمك... سيؤلمك ليلًا ولكن عليك أن تعضّ عليه شوية شوية لكي يأخذ مكانه...

في خمس دقائق انتهت العملية. ومع الأيام عاد الضرس إلى مكانه وشفي المريض من ألمه. فبعد شهرين التحمت اللثة وكانت هذه عملية الزرع الأولى التي تكلّلت بالنجاح فتبعتها مرات كثيرة...

قصة أخرى مؤلمة حدثت قبل أن نجتمع مع هذا المتمرّس، كنا في مهجع الباحة الرابعة... وفي منتصف الليل كان مريض يئن من وجع ضرسه المتورم، فأتى الرقيب وصاح بحارس الليل:

ـولاه، شو هالصوت؟

ـ مريض يؤلمه ضرسه وهو متورم وملتهب.

ـ أعطه حبة «تمارين» (وهي شبيهة بالأسبرو).

ـ ما في...

فذهب الرقيب ثم عاد ومعه حبة دواء...

ـ أعطه إياها، وعند إدخال الفطور ذكّرني بحالته كي أجلب له طبيبًا...

عاد الرقيب نفسه عند الفطور، وذكّره بالمريض...

ـ جيبو! خلّيه ينبطح على بطنه ويوضع جسمه على الأرض! فامتثل المريض وضرسه المتورم إلى أعلى...

ـ هدّي رأسه بيديك... وأمر المريض بأن يتنفس نفسًا عميقًا...

ـ تفضل دكتور شوف ضرسه...

فما كان منه إلا أن رفسه رفسة عنيفة من جهة ضرسه الوارم. فصرخ المريض صرخة زلزلت لها جدار السجن.

ـ قف... افتح فمك... شيل الضرس...

تكسر الضرس مع ما حوله... بطريقة حضارية... وضعناها لهم في السجلّ الذهبي للتعذيب... وبما أننا لا ننظر إلى وجه الرقيب... ولا نعرف من معه... لقبناه بـ «أبي ضراس».

(أمّا في صيدنايا فكان معنا طبيب مختص، اسمه أبو أنس من بانياس من الإخوان المسلمين له باع طويلة في العمل...

وقد اشترينا من مالنا الخاص «خرّ برّ»، وعدَّتي قلع وتعقيم، وعدة لأخذ قياسات وجبات الأسنان، وبنجًا ورصاصًا... حاجيات عيادة كاملة لا يكاد ينقصها سوى الكرسي... وكنا نجلس على واحد صنعناه بأنفسنا من صناديق الخشب الخاصة بتعليب الخضروات... صلّح أسناني وصنع لي جسرًا... مستعملًا البنج كأننا في عيادة خارجية. وركّب وجبات عدة كان يرسل قياساتها مع أهل المساجين الذين يجلبونها معهم عند الزيارة الثانية، فلا يدفع السجين سوى تكاليفها. أما «المقطوع» بلغة السجن، أي الذي لا يملك أي مبلغ من المال، فيدفع ثمنها من صندوق الزيارات، حيث يضع كل زائر ١٠ في المئة من إجمالي المبلغ... فنتكاتف لنبقى على قيد الحياة...

والقصة هي نفسها لحالات الصحة والقلب، إذ وجد معنا أطباء من كل الاختصاصات... وكان هؤلاء يعقدون حلقات ويشرحون للسجناء محاولين الإجابة على أسئلتهم.

كذلك بالنسبة لتعليم الدين، واللغات وفق خبرات المعتقلين، إذ كان معنا طبّاخون، معلمون في صناعة الحلويات... نتعرف منهم كيفية الطبخ وإعداد المأكولات والحلويات... على قد الحال...! فإذا أردنا على سبيل المثال صنع «الشيش برك»[1] استعضنا عن العجين ببعض الخبز الذي يفضل عنّا. فنجمعه بحسب الحاجة... ننقعه بالمياه حتى الصباح ثم نبدأ بإعادة عجنه... وبعد ساعات وساعات من الدعك تتماسك العجينة وتبدأ الطبخة... كذلك الأمر بالنسبة للقطايف[2]، غير أن قالب الحلوى نصنعه من السميدة الناعمة... وألف صحتين...!).

صنع الحلوى، القطايف بالقشطة: ننقع خمسة أرغفة من الخبز اليابس من المساء حتى الصباح إلى أن تتشّ ونبدأ بإعادة عجنها وزيادة الماء وتأخذ تقريبًا ثلاثة أرباع الساعة لعجنها إلى أن تصبح ليّنة وتذوب العجينة، نضعها في جاط وفي الوقت نفسه نضع صاجة حديد عتيقة على نار وقودها مشايات البلاستيك والملبوسات المهترئة وتبدأ القطايف بالنضوج. طبعًا نفتح الشبابيك وأربعة أفراد منا يبدأون بالتهوئة بالحرامات الصوف، ونبقي قليلًا من العجينة نضعها بكيس من النايلون ونحدث فتحة فيه لتتسرب العجينة اللينة جدًا ونقليها بالزيت لتصبح «عوامة» وهذه الحلويات فقط نصنعها بالأعياد المجيدة وصحتين.

---

(١) طبخة تقليدية تُحشى فيها رقائق عجين باللحم المفروم وتسبّح في اللبن المطبوخ.

(٢) حلوى محشوة بالجوز أو القشدة.

حدث ذات يوم

في تدمر، وخلال التفقد، مرّ بجانبي شرطي وركل السجين الواقف أمامي. فسقط أرضًا. وكي لا أقع بدوري مددت يدي للتوازن. كنت مغمض العينين فضربت يدي بالرقيب...

- يا شرمـ... بدك تضربني؟ شرع يضربني ومساعده بالكابل...
- هات إيدك لهون!

قدمت يدي ظنًّا مني بأنه سيجهز عليها... فأمسكها أحدهم فوق الكوع فيما فعل هو عند الرسغ. شدّها بسرعة البرق.

- روح شوف كوعك يا منيـ...

لم أشعر بشيء بادئ ذي بدء، وعندما دخلت المهجع رأيت كوعي ملتويًا نحو الجهة العليا من ذراعي، وقفا يدي بالجهة المعاكسة مكان راحة اليد، شيء غريب فعلًا. فأتى رفاقي وأعادوا كوعي إلى موقعه السليم، بعد أن استفسروا كيف فعلوا ذلك، لكنني بقيت عاجزًا عن تحريك الذراع. ولا أزال أعالج إلى اليوم.

عيد البعث

الزمان: ٨ آذار ١٩٨٩، المصادف يوم عيد البعث.

المكان: سجن تدمر.

كأي يوم عطلة رسمية أو عيد يكون النهار مباركًا بحيث لا نخرج للتنفس، إلى المسلخ... حيث الضرب والجلد والتعذيب، مثل «كواع وركِب» أو التمرين السادس أو الضغط.

جلست يومها متكئًا على باب الزنزانة الصدئ، فسمح وجود بعض الثقوب باختلاس النظر إلى الخارج. سمعت أصواتًا تنبئ بحلول موعد الغداء. وبما أنني عرفت مسبقًا أن الوجبات توضع إلى الباب، دفعني الفضول إلى المراقبة، علّني أعرف ما يحضرون لنا في يوم العيد... وقد تعودنا أن تتضمن بعض اللحمة. رأيت «البلدية»، (وهي تسمية نطلقها على المساجين العسكريين السوريين العاملين لباقي المساجين)، يحملون الطبق الذي علت وجهه بضع حبات من الصنوبر واللوز مع الرز، فيما حمل آخر وعاء من خمسة فراريج لمئة وخمسين معتقلًا!

فقال أحدهم للآخر:

ـ هودي المنايـ... بدن ياكلوا رز ولحمة، وهم قتلة ومجرمون ما بحبّوا الرئيس... لازم ياكلوا خر... مو هيك؟

ـ حرام خليهم يذوقوا اللحمة شي مرة.

ـ شوف شو بدن ياكلوا! مد يده الوسخة وبدأ يفك أزرار بنطاله المهترئ الممزق، وأخرج عضوه التناسلي وبال على الرز... شهقت... وخفت أن يكون قد سمعني! فسأل زميلي:

ـ شو باك؟

ـ ... لزمت الصمت في الأول.

ـ وضعوا الطعام والأكل يبدو طيّبًا، رز ودجاج وصنوبر ولوز. أتتني فكرة لكي أهرب من الغداء. قلت لزميلي ليك شو حظي عاطل

كل الليلة الماضية أستفرغ، معدتي فارطة ما راح فيّ آكل؛ فورًا قال زميلي:

ـ أتركها عليّ!

والله ثم والله، لم أقصد أن أطعمهم حصتي غير أنني لم أجرؤ إلى اليوم على ذكر ما حدث أمام أحد... فأكتب لتقرأوا...

أدخلوا الطعام إلى الزنزانة، تقريبًا كل السجناء تجمعوا لرؤية الرز والدجاج، والتعليقات بدأت: ياي شو طيب الأكل كمان صنوبر... يلا بلشوا بالتوزيع بربّكم بلشوا... إلا أنا فشعرت بالقرف وبالحزن والأسى لما يصيبنا من ذلّ واحتقار على أيدي الأوباش الصعاليك... ليت مسؤوليهم يعرفون كيف يعاملوننا!...

لم يلاحظ أحد الفارق بالطعمة، وقد فقدنا جميعًا إنسانيتنا وحواسنا البشرية... فكيف بالذوق؟

وتساءلت كم من مرة أكلت وتلذذت وحسبت بولهم مرقة دجاج أو بهارًا صينيًا جديدًا، أو... من دون أن ألاحظ الطعمة.

الحالة داخل المهجع

في السقف فتحة بقياس ١,٢٥ سم × ١,٢٥ سم. أما إذا كان المهجع كبيرًا ففيه فتحتان بدل الواحدة، وبذلك تتزايد قدرة المراقبة من السطح على المساجين.

إذًا، قدرتنا على التنقّل داخل المهجع محدودة. أما النزهة من الحمام وإليه فممنوعة بعد السابعة مساء مهما كان السبب، رغم

أنه يصعب على الشرطي مراقبتها. ولكن! كان يجب علينا تحمّل المشقات، والتعرض للعقوبة من أجل أن ندخل إلى المرحاض. ولأن الكلام ممنوع، استعضنا عنه بالإشارة. مثلًا: إذا أردنا قضاء حاجة نشير بحركة إلى «الحارس الليلي»، مثلًا: الكف اليسرى تغطّي قبضة اليد اليمنى معناها للبول فقط، الكف اليسرى على الزند الأيمن معناها قضاء الحاجة الكبرى، الكف اليسرى على الكوع معناها وضوء وصلاة. وهذا بدوره يصغي متنبهًا إلى دعسات رجال الشرطة على السطح، فيحدد مكانها ويسمح تبعًا لبعدها أو قربها للمسجون أن يذهب إلى الحمام على مسؤوليته الخاصة. في هذه الأثناء يتبادل المعتقلون الأماكن، فيأتي أحدهم من الزاوية وينام تحت الفتحة مباشرة ريثما يعود الأخير من الحمّام. وإذا ما رآه الشرطي، وذلك غالبًا ما يحدث، فيعطي لكل واحد منهم رقمًا مثل ١، ٢، ٣، وفي الصباح يكون العقاب بانتظارهم.

وقلق الليل أصعب بمرّات من تعذيب الصباح، إذ يسهر الرقم واحد يفكر بما ينتظره في الصباح: هل يوضع في الدولاب؟ أم يضرب بالكرباج؟ قد يطلب منه أن يكون عاري الصدر ويركع ثم ينام في الأرض. فيشرع اثنان من الشرطة بضربه على ظهره بكرباج مأخوذ من دولاب سيارة، وهو بعرض ٧ أو ٨ سنتم بطول ٩٠ سنتم...

ولهذه الكرابيج أسماء مثلًا صباح، سميرة توفيق، فهد بلان، أو الأبطح، الأعرج، الصهباء إلخ... كلّ حسب السجّان، وبالنسبة لنا كلها بالطعم نفسه وهي والعذاب سيّان...

وقد يُطلب إلى السجين أن يرفع رأسه ويقف «وقفة عز» كما يقول الشرطي. فيضربه بالكرباج على رأسه بدءًا من الأذن اليمنى ويلفه إلى الجهة الثانية في شكل دائري، فيصيب العين ويغطّيها، فتتورّم مع الأذنين على السواء. وهو ما حدث معي فعلًا... ثلاث مرات. أو قد يُضرب على رقبته بالكرباج إلى أن يُسلخ الجزء الخلفي من الرقبة. وأحيانًا يتفنن جلّادو السجن بابتداع عقوبة جديدة تخطر على بالهم للمرّة الأولى. وتُسجّل باسم صاحبها في كتاب التعذيب.

فكيف يغمض للمحبوس جفن، وذنبه الوحيد أنه ذهب ليلًا إلى الحمام، أو تقلّب في «فراشه»... هذا في الليل أمّا في النهار فإليك ما يحدث: العقوبة الأقسى داخل المهجع تحلّ عادة في ساعات الظهر الأولى، حيث يطلّ الشرطي من فتحة السقف وينادي رئيس المهجع أو الشاويش:

- مين بيعرف إنكليزي ولاه؟ جيبوه لهون!

فيأتي سجين يتقن اللغة الإنكليزية...

يبدأ بالأسئلة التافهة الحقيرة مثله. ما معنى كـ... أمك؟ وأيـ... بـ مر...؟ وبدي نـ... أختك؟ وقِسْ على ذلك... وبعدئذ يأتي التعذيب التالي:

- بدك تضرب رئيس المهجع كفّ بالإنكليزي قوي، وإلا هو يضربك بالعربي...

فيبدأ الصراع: كفّ من هذا وكفّ من ذاك... إلى أن تسيل الدماء من السجينين كليهما.

ويأتي آخر ويقول: «جيب أقصر سجين»، «أسمن سجين»، «أضخم سجين...».

فيأمرهم بالانبطاح أرضًا عراة الصدور، ويجبر أحدنا بجلد زملائه بخرطوم مياه:

ـ يلاّ ولاه! اضرب كل واحد ١٥ جلدة! بدي شوف الدم وإلاّ بيجي دورك.

طبعًا، نحاول أن نضرب على الخفيف، ففي النهاية نحن زملاء. فيأمر أحدهم بأن يضرب الشاويش وهنا تبدأ المعركة ثم يبدّلهم جميعًا إلى أن نرى الدماء، تسيل من الظهور. هذا إن لم يطلب من أحدهم بأن يأتي بإبرة، ليبدأ بوخز السجين الآخر حتى الإدماء وهذا ما يحدث في بعض الأحيان. وهنا يصرخ الحارس إلى سجين ثالث:

ـ جيب ملح ولاه! افرك ظهورهم، وإذا ما شفت الدم، يصير متلك متلهم.

أو يطلب حذاء يسمّيه السوريون «شحّاطة». ويكون المعاقب عاري الصدر فيضرب على ظهره مئة مرة... حتى يصبح بإمكاننا رؤية الدم من خلال الجلد المزرقّ...

هذه بعض وسائل التعذيب السادية التي يجبرنا الحراس على إنزالها بعضنا ببعض... لا أدري ما إذا كانت بعلم الإدارة أو من دونها؟!

نوبة الحرس

كانت ليلة الجمعة، وحصّتي الأولى في الحراسة؛ (يوم الجمعة يوم عطلة لا نخرج إلى التنفس ويتأخر الحرس بإدخال الطعام إلينا لأنهم يدمجون الفطور مع الغداء). كانت النوبة الأولى لي في الحراسة، من السابعة مساء حتى التاسعة: وفيها يكون السجن في حال فوضى كبيرة: فهذا يريد الدخول إلى الحمام، وذاك يتحدث ورفيقه، وذلك يحضّر سحوره لأنه سيصوم، ويسأل عن النوبة الرابعة في الحراسة كي يوقظوه للسحور، وآخر يكمل قصة الفيلم الذي بدأ بسرده لرفاقه، وآخر يتشاجر مع رفيقه لأنه نفض الحرام وشمّ رائحة لا تعجبه، وآخر لم يغسل رجليه فيحتجّ عليه من سيكون رأسه إلى جانب رجليه، وهلمّ جرًّا...

في هذه الزحمة والفوضى غير اللائقة، كان صوتي يعلو ويأمر الجميع بأخذ أمكنتهم وتحضير أنفسهم للنوم. في هذه اللحظة علت مشاجرة بين زميلين، ولسوء حظي تزامنت مع مرور الشرطي فوق فتحة السقف وسمع الشجار فقال بصوت عالٍ:

- حرس ليلي ولاه!
- حاضر سيدي. أجبت.
- شو هالأصوات عندك؟
- ما في شي سيدي.
- ولاه جيب يللي عم يتقاتلوا.
- سيدي ما في شي عندي بالمهجع، كله حاضر لأمرك.
- كذاب أنا سمعت المخانقة.
- ما في شي. مش عندي.

ـ رح عدّ للثلاثة إذا ما جبتهم رقمك واحد يا خرا. فهمت ولاه؟!

فكرت للحظة: إذا أتيت بالمتشاجرَين يقال عني إني جبان، وإذا أنكرت أعاقب أنا، فبالله ما العمل؟ قررت أن أبقى صامدًا والله المدبر.

شو ولاه وين المنايك؟ ما إجوا. شرموط، بندوق، عكروت... عامل حالك بطل؟ يلعن شرفك. بكرا الصبح منتقابل.

ذهب... وانتهت نوبة الحراسة الساعة التاسعة واستلم سجين آخر مكاني. وضعت رأسي على مخدتي المؤلفة من حذاء قديم ملفوف بخرقة. وبدأت أفكر بمصيري في الصباح. هل سيكون العقاب بوضعي في الدولاب وجلدي ٣٠٠ جلدة؟ أم وضعية دولاب وهي أصعب حيث أنبطح وأرفع رجليّ ويبدأ الضرب؟ لا، ربما وضعية الهرم حيث أنام على بطني ويبدأ سجناء بالنوم فوقي حتى يصبح العدد ٩ ـ ١٠ سجناء! قلت إنشاء الله لا تكون هذه، صعب أن ينكسر أحد أضلعي كما حصل لزميلي عباس حيث انكسر ضلعه وبقي شهرين يئنّ من الوجع... ربما وقفة العز حيث أرفع رأسي إلى الوراء فاسحًا المجال لعنقي أن يظهر وينكشف تمامًا للسجّان، وأضع يدي وراء ظهري، مغمض العينين طبعًا، وأتلقى ضربة جودو على بلعومي. إذا لم ينكسر أبقى بلا طعام مدة أسبوع لا أستطيع أن أبلع الريق. ساعتان تلتهما اثنتان، والخوف يزداد، وكلما قاربت الساعة الصباح زاد خوفي وتوتري.

أصبحت الساعة الخامسة صباحًا ولم يغمض لي جفن. الحراس الليليون أحسوا كلهم بوضعي. السادسة والنصف: استيقاظ. أتى

الجميع لمؤاساتي، إن شاء الله اليوم عطلة يكون هذا الحارس في إجازة فينسى. وقال آخر: إنت عملت منيح. الله يبعد عنك العذاب. ثم أتى المتشاجران أو المسبّبان، وقد خافا من أن أشي بهما وأقول إنهما السبب، قالا: نحن حاضران ونعرف أنك بطل، يلّا واحد أحسن من ثلاثة. فأجبت: مثل ما الله بيريد.

السابعة... الثامنة... التاسعة... وخفق قلبي وبدأت أتنفس بسرعة عند سماعي القفل في الباحة الخارجية يفتح. وبدأ يتعالى صراخ السجناء المعاقبين في الباحات التي تسبقنا. وقرأت سورة الكرسي من القرآن الكريم، علّ الله يساعدني، واستنجدت بجميع الأنبياء ليحضروا معي ويدافعوا عنّي. اقترب الصراخ وها هو المهجع الذي يسبقنا... يا ربّ فتح الباب...

ـ أدخل الطعام ولاه.

خرج خمسة شبان معي لإدخال الطعام.

سأل الشرطي: ولاه في عندك مْعَلّم؟ أي معاقب.

أجبت أنا فورًا: لا سيدي.

كان يجب على رئيس المهجع أي الشاويش أن يجيب وليس أنا. لكنني خاطرت بنفسي فأنا معاقب في كلتا الحالتين، وقلت: يلاّ مثل ما الله بيريد. قال الشرطي: سكّر الباب.

لم أصدق أنني نفدت بجلدي، وهجم المهجع بأكمله يهنئني بالسلامة، وكأنني عائد من جبهة الجولان منتصرًا سالمًا من الصهاينة أو كنت في جبهة الجنوب اللبناني...

ـ الله كريم شفت سورة الكرسي أنقذتك.

وآخر: لأنك آدمي.

ـ وغيره: لأنك أنقذت رفاقك... ووو. وما زالت أصوات المعاقبين تضج في أذني. لعنة الله عليكم يا شرطة!

مهمّة رئيس المهجع

أمّا الآن فسأروي لكم مهمّة رئيس المهجع:

يعيَّن رئيس المهجع من قبل الإدارة، ومن المحبذ أن يكون جنديًا حاليًّا أو سابقًا. وإذا صودف وجود أكثر من جندي يكلَّف الأعلى رتبة، وقد يحدث أن يُعيَّن وفق الأقدمية...

على الشاويش أن يكون مُطيعًا ومخبرًا، ويعمل لحساب الإدارة، (لكن القلّة يتجاوبون مع رغبة الإدارة)، وعليه تنطبق شروط الحقارة والدناءة للوشاية...

من أبرز مهمّاته تقسيم المساجين إلى مجموعات خماسية للأكل، بحيث تسمّى كل مجموعة «سفرة» وأن يعرف أسماءهم غيبًا. يوزّع الطعام بالتساوي ويعيّن الحرس الليلي من المساجين. يشكل الصلة الوحيدة مع الإدارة، ويحلّ إشكالات الغرفة، كتعيين نائب عن المناوب في حال مرض هذا الأخير.

حين يأتي الشرطي إلى الباب عليه أن يقدم الصف، فيأمر المساجين في الغرفة بأن يتأهبوا استعدادًا («استرح، استعدّ») ويعدّ المهجع للتفتيش. هو أيضًا من يسلّم المعاقبين إلى الشرطة لكي

يعاقبوا، وفي حال تعذرت معاقبة أحدهم يعاقب الشاويش بدلًا منه... وفي بقية السجون «الشاويش» محترم ولكن في تدمر هو للذلّ والاحتقار والضرب والبهدلة.

ومثل كلّ الليالي مرّ شرطي فوق المهجع. وكان أجبن المساجين في مهجعنا لسوء الحظ، حارسًا ليليًّا، وكلما سمع دعسة الشرطي تقترب على السطح كان يزيد ارتجافًا خوفًا من أن يعاقبه الشرطي... وهذا ما حصل. أتى الشرطي ووقف لبرهة من الزمن فوق رأس رفيقنا الجبان وصرخ بصوت قوي:

ـ ولاه!

ـ حاضر حضرة الرقيب...

ـ ولاه وين كنت قبل خمس دقائق؟

ـ مكاني حضرة الرقيب.

ـ كذّاب ولاه! شفتك كنت بتنيـ... واحد في الحمّام، جيب اللي نكـ...

ـ والله يا حضرة الرقيب بعدني مكاني، استلمت الحرس الساعة واحدة وما زحت...

ـ الرقيب ما بيكذب ولاه! أنا شفتك! يا بتجيب اللي كان بالحمّام أو بكره بتموت. يالله ولاه!

ومن شدة خوفه من المعاقبة في اليوم التالي استجاب لأمر الشرطي افتراءً. وكان قبل نصف ساعة أحد المساجين يقضي حاجته في الحمام، فذهب وأتى به.

ـ حضرة الرقيب هذا كان بالحمّام.

ـ شفت ولاه أنا ما بكذب.

في الحقيقة، الرقيب لم يكن يعرف ما يقول، لكن خوف الحرس الليلي ورّطه وأحد المساجين...

ـ ليلي ولاه، صحّ رئيس المهجع!

ـ حاضر حضرة الرقيب.

فأتى الشاويش ووقف تحت فتحة السقف:

ـ حاضر سيدي الرقيب...

ـ بدّك تفحص الخر... اللي كان بالحمّام لأنه مارس الجنس هو والليلي، (أي الحارس الليلي)، وبدّي النتيجة حالًا فهمت؟

ـ حاضر سيدي.

فتدخل المعتقل الذي كان قد دخل الحمام:

ـ والله سيدي ما صار شي! دخلت الحمّام منذ نصف ساعة وأنا أعاني إسهالًا... اسأل المسؤول الصحي و...

ـ إخرس ولاه!

ـ والله سيدي ما صار شي.

فقال الحارس الليلي:

ـ سيدي أنا ما تركت مكاني للحمّام، بقيت هنا...

ـ منيـ... ولاه كذاب! رئيس مهجع يالله شو النتيجة؟

استيقظ السجناء كلهم على الصراخ، وكنا نعلم أن شيئًا لم يحدث. غير أن الرقيب المفتري سئم وأراد أن يتسلّى فقط، وكان شاذًّا يسعى للتمتع بتعذيب السجناء وإذلالهم.

ـ شو صار ولاه؟ شلاح ولاه...

رفض السجين خلع ملابسه وشرع يبكي ويضرع إلى الله راجيًا الرقيب بأن يتركه لحاله...

ـ عدّ للخمسة، إذا ما شلحت بيكون رقمك واحد ومْعَلّم[1] أبدي!

بقي السجين يرتعش كورقة في مهبّ الريح، رافضًا الخضوع... فأمر الرقيب رئيس المهجع بأن يأتي بخرطوم المياه وهو بطول مترين موصول بحنفيات الحمام...

ـ حاضر حضرة الرقيب، حاضر سيدي.

أمر الرقيب الحارس الليلي بخلع ثيابه ليفحص الشاويش حالة عضوه التناسلي... وصاح به الرقيب:

ـ مسوك أيـ... ولاه.

ـ حاضر سيدي...

يا منيـ... شايف ولاه؟ ما زال في حالة انتصاب! يعني كنت تنيـ...! طوبز ولاه!

ـ حاضر سيدي.

وكأن ذلك لم يشبع غليل الرقيب السادي، طلب إلى رئيس المهجع فحص مؤخرة السجين...

- سيدي مسكّرة مش فاتحة...

ـ كذّاب! إذا كنت صادق خلّي السجين يشلح تنشوف...

ويعود السجين إلى رفضه...

ـ انبطح ولاه!

---

(١) التّعليم هو التأشير إلى سجين ما على أنه برسم المعاقبة.

ويأمر رئيس المهجع بأن يضربه ٥٠ جلدة بالخرطوم على ظهره... وبدأ العدّ... فيما المسكين يئن من الألم مستغيثًا بالله والنبي، وبالرئيس الأسد، فأمّ الرقيب وعرضه... من دون رحمة أو استجابة...

ـ ٣٥، ٣٦... شو بتشلح أم لاه؟

ـ بشلح سيدي... وكان العدّ وصل إلى ٤٥...

ـ وقّف ولاه منيـ...!

فيوقف رئيس المهجع الجلد...

في هذه الأثناء بقي الحارس الليلي عاريًا يخبئ أماكن جسمه الحساسة بيديه.

تعرى السجين وعندما وجد الرقيب عضوه التناسلي أكبر من عضو الحارس قال له:

ـ معك حق، أنت كنت بتنيـ... يعني اسمك العريس. فاهم ولاه!

ـ حاضر سيدي.

ويتوجه إلى الحارس الليلي:

ـ وأنت يا شرمـ... أنت العروس الليلة، فهمت ولاه؟

وظنًا منهما أن العملية انتهت، قالوا «نعم سيدي». ولكن الرقيب اشرأب وقد خيل إليه أنه قاضي البلاد والحاكم بأمرها، وأنه اكتشف من خان الوطن العربي ومن باعه، فقال لرئيس المهجع:

ـ الصبح بتحضرلي العريس والعروس لنزفّهم...

ـ حاضر سيدي.

ـ انقلعوا جميعًا يا عرصات يا...

في الصباح التالي أتت مجموعة من الشرطة للتفرج على العريس

والعروس وفق ما كذّب وألّف الشرطي. فعوقبت العروس بـ٥٠٠ جلدة على رجليها والعريس بـ٢٠٠، بحجة أن العروس قد أغوته ولم يستطع المقاومة فأكل آدم التفاحة.

لازمتنا قصة العروس والعريس لمدة خمسة أشهر... وكانوا كلما أرادوا أن يعاقبوا أحدًا، يطلبون العريس والعروس... فذهبت العروس إلى مهجع السل، فيما طلب العريس السماح من مدير السجن يوم أتى في مهمة خاصة، وطويت صفحة من الصفحات الأليمة التي عشناها في جهنم تدمر.

التسلية

كل شيء في تدمر ممنوع، فكيف بالتسلية... لم يسمح لنا بالطبع سوى بالقليل مما يقدمه لنا السجانون من نوم غير مريح، مأكل ومشرب ضئيل، والدخول إلى الحمام... ولو كان بيدهم منعنا من ذلك لفعلوا. إلا أننا ابتدعنا بطرقنا الخلّاقة، والحاجة أم الاختراع، بعض وسائل التسلية: فكنا على سبيل المثال نخيط على قطعة قماش ما يخولنا لعب الطاولة والشطرنج، ثم نخبئها قبل التفتيش. إذ لو اكتشف المسؤولون أمرها لكان حسابنا عسيرًا...

وأفضل سبل التسلية وأشهرها على الإطلاق هي رواية الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية على السواء... همسًا! ويكتسب الراوي وفق خبرته جمهورًا واسعًا يجتمع حوله في ساعات «العرض» التي يعلن عنها مسبقًا عند الغداء. وقد يروي هذا الأخير حلقتين في اليوم الواحد، تمامًا كما قد يحصل في «الحريّة»؛ (طبعًا كان للراوي

الحق المطلق بزيادة بعض المشاهد أو بحذفها كما يراها أو يحبها أن تكون، وشرطه الأساسي عدم مقاطعته وإلا يوقف السرد أو الفيلم).

في بعض الأحيان، كنا نقوم بعرض حلقات مكثفة للراغبين مهما تعدد أو اختلف مستواهم التعليمي والتثقيفي. فنروي حلقات من التثقيف الديني والفقه، واللغات، والإعراب والتجويد، والتاريخ والجغرافيا... وتعليم اللغة الإنكليزية أو الفرنسية، كل في موعده، أي بعد التفقد عندما نكون اطمأننّا إلى أن باب الزنزانة لن يفتح قبل حلول المساء... فكنا دومًا حذرين مخافة العقاب... وكأن عدم الموت سأمًا أو يأسًا في السجون يشكل هزيمة لمن رمى بنا في ظلمة الحبس والقمع...

في أحد الأيام وبعد التفقد، تجمعنا ستّة أشخاص حول زميل لنا في المهجع لسماع واحدة من رواياته عن حرب بيروت. هو شاب لبناني من الحزب التقدمي الاشتراكي يدعى غازي م. وقد خاض معارك ضارية في بيروت ضد حركة أمل.

بدأت الرواية عندما جاء الأمر إلى زميلنا غازي من المسؤول الأول، أبو هيثم، بالتراجع، وغازي يدخل جو المعركة:

ـ ١ـ١، تراجعوا!

(١ـ١ هو لقب مسؤول جهاز الأمن يومها ويدعى جمال كرارة الملقب «أبو هيثم». عرفته في تدمر وأطلق معنا في دفعة عام ٢٠٠٠، لكنه بقي مسجونًا في لبنان ولا أعرف أين).

يتابع غازي:

ـ جنّدت مئة وخمسة عشر شابًّا بأسلحة الكلاشنيكوف والإم ١٦ وبعض الأسلحة الأخرى المتوسطة، ثم علّقت جنزيرًا من الرصاص من طراز ديكتيريوف حول عنقي وانطلقت أقاتل من شارع إلى شارع، من زاروب إلى آخر حتى وصلت إلى مبنى البلاديوم في شارع الحمرا حيث مقر قيادة حركة أمل واحتللناه... قاتلت حتى وصلت باب المسؤول، فخلعته بركلة قوية لأجد أبا علي جالسًا فصاح:

ـ لا يا غازي لا تطلق النار!

ـ اسكت! أنتم قتلتم الناس وحرقتم السيارات وهدمتم المنازل...

ـ نحنا وإنتو. مش بس نحنا. إذا بدك منسحب جنودنا فورًا...

ويجود غازي ليخبرنا كيف شهر سلاحه الرشاش، وبدأ يطلق النار في المكتب مقلّدًا صوت الرشاش. فجأة... يقاطعنا قرع عنيف على باب المهجع ليصرخ الحارس آمرًا إيانا بخلع ثيابنا كلها في أقل من نصف دقيقة للتعقيم.

لم يستوجب الأمر أكثر من بضع ثوانٍ حتى أصبحنا عراة تمامًا، لا يغطينا سوى حرام من حرامات الزنزانة النتنة.

ساد صمت رهيب أجواء الغرفة.

ابتسمت. وكان خطر لي أننا ٦٧ شابًّا لبنانيًّا في الغرفة، حضرنا وشاهدنا واشتركنا بالحرب، كل ينفّذ أوامر حزبه (ولا أظن بأننا كنّا جبناء حينها)، مذ كنا قادة عسكريين في حروب بيروت. وإذا بواحد

من خارج الغرفة لا نعرف له وجهًا يملك علينا سلطانًا فيوقفنا عراة، كما لم تعرفنا أمهاتنا.

طأطأ غازي حامل الرشاش رأسه وقد وقف شامخًا بطوله في الغرفة، وضحك لعورته التي بانت لأعيننا عندما غدرت به السرعة والخوف فلم يتغطّ كما يجب. وضحكنا لأمجاد المقاتلين التي حوّلها السجن السوري هيكلًا فارغًا يخشى قرعَ الباب، فيحتمي بحرام لا توازيه قذارة سوى ظلمات المجهول، وخطف الكرامة البشرية التي برع فيها من دون منافس أربابُ السجون السورية.

السجن مجتمع مصغّر، وعيّنة عما قد يجده الواحد في دنيا الحريّة. لذا، ترى بيننا الطيب والخبيث، المتكبر والمتواضع، الكريم والبخيل، دمث الأخلاق وسيئها... ومنهم أيضًا الصامت الذي لا يكلم أحدًا، والخائف أو الحزين الذي يبقى في زاويته طول النهار يبكي... منهم من يتذكر أولاده، أهله أو عائلته، فيضحك لذكرى ويبكي لأخرى، فترتسم على وجهه سمات الوجل حينًا ومسحات خجولة من الفرح الهارب أحيانًا... أما الأقوى، فهو ذاك الذي استحبس داخل سجنه، فأطلق العنان لمصيره، لحياته أو موته، أو لعله يحصر تفكيره بالحالة الوسطى ما بين نبضة الحياة وشخرة الرحيل...

أما أنا، ففكرت بأن إرادة الحياة هي الأقوى، وكلما كنت قريبًا من الموت تمسكت أكثر بالحياة، لا لسبب غير الأمل بالحرية، فأخرج يومًا وأكتب ذكرياتي، شهادة حق للعذاب الذي يعتصر قلبي، فأنتفض ضد الظلم والظالمين والإهانة والبطش والتعسف...

وتمر الأيام لا نعرف عديدها... فيذوي المنفرد ويذبل في دوامة المرض والقنوط، فاتحًا للسل سبيلًا إلى جسده، وللقرحة مجالًا إلى أحشائه، وللسكري مجرى في دمائه... إلى أن يعود إلى ربّه، فينطفئ كشمعة عتيقة... دخانًا بلا نور...

والأقوى على الإطلاق هم الذين تقع المسؤوليات على عاتقهم. إنهم الجبابرة الذين يهتمون بالعجزة وبكبار السن، فيغسلون ثيابهم ويعتنون بنظافتهم، وقد تؤول بهم الأحوال إلى التضحية بحصتهم اليومية من الطعام إلى الأسوأ صحّة، فينقذونهم ليوم... وتستمر الحياة...

كنا إذًا نجلس في المهجع بعد الغداء في حلقات تثقيفية ترفيهية، منا من يختار الاستماع إلى الأفلام، ومنا من يسعى لتحصيل ما أمكن من المعرفة، فيما يستسلم البعض الآخر لذكرياته...

وكان بيننا سجناء يعنون بتربية النمل ومراقبة أنماط التصرف لديها... واكتشفت مع صديقي ذي الخبرة جزءًا من عاداتها.

ـ «هذه نملة كشافة، (أي مهمتها الاستكشاف)، تقضي مهمتها بإيجاد الطعام لرفيقاتها... فتدور في أنحاء الغرفة! انظر...! سأضع لها قطعة خبز...». فأتت النملة وتفحصت الخبز... وسارعت إلى الوكر لتعود بعد هنيهة مع ثلاث من رفيقاتها... وكان زميلي في هذه الأثناء قد خبّأ الفتات... دأبت النملات على الدوران في البقعة الصغيرة بحثًا عن الخبز... ثم رأيناها تدور حول رفيقاتها كمن يقسم بأنه وجد طعامًا... ورحلت النملات الثلاث... أعاد زميلي القطعة إلى موقعها

السابق، فهرولت النملة إلى الوكر، وعادت بالمسؤول عن أمرها ترافقه نملتان أخريان... فلم تجد الخبز. فما كان من النملات إلا أن هجمت على «الكشافة» وضربتها حتى انفصل رأسها عن جسدها...

وأردف صديقي:

ـ أرأيت؟ النمل لا يضيّع وقته أبدًا. فعلى العامل أن يكون صادقًا مع مؤسسته. ولو عمل المسؤولون الحكوميون بهذا التفاني فهل كنا وصلنا إلى ما نحن عليه؟

وفي إحدى المرات، زجّ صديقي المراقب بعشر نملات داخل علبة بلاستيكية، ودأب يقدم لها الطعام يوميًا مع نقطة ماء... تماهيًا مع ما نعيشه نحن في السجن... وبعد مرور نحو عشرة أيام ماتت ستّ نملات... على رغم وجود الهواء والأكل. ولعلّها لم تتحمّل الأسر... فماتت. أما النملات الأربع المتبقية فاعتادت الحبس معتمدة على صديقي ليعيلها. وقد حاولنا مرة أن نخرجها، ففتحنا العلبة...

لم يبق سوى واحدة، بعد أن تشاورت كلها، أو على الأقل هذا ما خيّل إلينا. وعادت إحدى المحررات إلى العلبة بعد أن فشلت في إيجاد أي فتات من الطعام على أرض زنزانتنا الفسيحة... فقررت النملات الاتكال على صديقي للاستمرار بالعيش...

لم نفهم رد فعل النملات التي آثرت العيش مسجونة على الموت حرة... لعل هذه فلسفة الحياة، أو ربما هي غريزة البقاء... أو لتُشجّع المحكومين مؤبدًا كي يصبروا حتى الفرج.

وكان يحدث أن يمر بنا صنف مختلف من النمل، فيحصل التشابك

وينتهي لمصلحة صاحب الأرض. أما الجيوش الغازية فمصيرها الموت تقطيعًا... نمط نملي استنسخه الإنسان...

عام ١٩٨٩، أطلق عليه عام الموت في تدمر وذلك بسبب العذاب الشديد والضرب المبرح حتى الموت عمدًا، وبدم بارد جدًّا. كانت إدارة السجن آنذاك في عهدة العميد المجرم غازي الجهني ونخبة من ألمع من عذب وعاقب وقتل وشنق وجرح وجلد وجوّع السجناء في العالم وأنجحهم. لم أكن أدري حتى ذلك الحين بأنهم يتبعون دورات كهذه، وإذا صادف أن كان من بين السجانين واحد ذو قلب رؤوف يوضع خارجًا أو يعاقب بالجلد كي يتعلم ويقوى قلبه، أما أن يأتينا من شغل عقله وباله باختراع نوع جديد من التعذيب لم يسبق لأحد أن فكر به قبله فهذا ما لم نكن ننتظره أبدًا... ماذا فعلوا؟

كانت حصة كل سجين في حينه لوح صابون في الشهر يستعمل للحمام وغسيل الثياب وتنظيف الجروح في آن واحد. لكنه في الواقع لا يكفي إلا لستة أيام أو سبعة على الأكثر. لذلك، كنا نستحمّ بالماء البارد من دون صابون، وكل خمس دوشات نستعمل الصابون مرة، ونغسل ثيابنا بالماء فقط، ليكفينا هذا اللوح. فجأة أوقفوا توزيع الصابون في السجن مدة شهر ثم اثنين وثلاثة وأربعة... بدأت الأوساخ تأكلنا كما يقال، وبدأت رائحتنا، التي لم تكن يومًا في السجن زكية، تضايقنا. كيف لا ونحن ننام رأسًا وكعبًا أي رجلَي رفيقي في أنفي وهكذا دواليك... رائحة الثياب، الحرامات، الأرض، الصحون البلاستيكية، الزفرة، كل شيء وسخ وذو رائحة نتنة. بدأ الجرب يظهر. بدأنا نحك في البداية حول الخصيتين وهو الموضع الأكثر حساسية

لبدء الجرب، وبدأ ينتشر رويدًا رويدًا في الجسم وينتقل من واحد إلى آخر حتى أصبحنا جميعنا في الغرفة مصابين به، لدرجة أن حبّة الجرب كانت تقدّر بخمسة سنتيمترات مربعة. نحكّ أجسامنا ليلًا ونهارًا، الدم يسيل من كل جزء من أجسادنا الهزيلة، وأصبحنا نجلس مثل القطار أي على صف واحد وظهورنا لبعض، وكل واحد يحكّ ظهر الآخر.

كانت هذه المصيبة التسلية الوحيدة للسجانين، أو هكذا أرادوا لنا أن نكون. وبما أن التنفس غير مسموح لنا في فترة الحراك ونحن جالسون القرفصاء، وبما أن المرض استفحل بنا، كنا نتحرك بالرغم عنا للحكاك المستمر فيجدون بذلك حجة، وهم لا يحتاجون إليها أصلًا، للعقاب. فتبدأ الدواليب ويعلو صراخنا... بقينا على هذه الحال مدة شهر بعد استفحال المرض بنا، وكنا نسمع شكاوى وصراخ الزنزانات الأخرى. علمنا بعد ذلك أن السجن كله مصاب بمرض الجرب. فابتدعوا لنا طريقة جديدة للعذاب: الحمامات بالماء الساخنة. وبعد أن استنفدوا كل أنواع التعذيب المبتدع قرروا أن يأتوا لنا بالدواء: أوعية كبيرة من البلاستيك، وقطع كبيرة من الإسفنج غير الطبي مأخوذة من فرشات قديمة. فتحوا باب الزنزانة وقالوا: الجميع عراة كما ولدتكم أمهاتكم العاهرات. خمسة منكم «سخرة»، الباقي بعضكم إلى جانب البعض الآخر ووجوهكم إلى الحائط. وبدأت السخرة بِدَهْن أجسادنا من الخلف بالدواء من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا. وعندما انتهوا من دهن الظهر أمرونا بأن ندير وجوهنا إليه، وبدأ الدهن من الأمام، أيدينا خلف ظهورنا، ورفاقنا، السخرة، يدهنون أجسادنا وحتى

أعضاءنا التناسلية والخصى. كنا نرقص جميعًا وكأننا فرقة رقص مدربة على رقصة واحدة وعلى النغمة ذاتها، نعلو ونهبط، نرفع أرجلنا وننزلها سوية... ألسنا جميعًا مصابين بالمرض ذاته؟!

تكرر الأمر لمدة أسبوع، كل يومين مرة. وبالدواء وعون الله شفينا من الجرب الذي ترك على أجساد بعضنا بعض العلامات التي لا تمحى.

عرف عام ١٩٨٩ بعام الموت الأحمر لكثرة ما حصد من السجناء. وكانت ساحة الباحة السادسة الأوسع كونها تحتوي أكثرية من الإخوان المسلمين، وهم الفريسة المفضلة للتعذيب والقهر.

في العام نفسه، ابتدعت قريحة السجانين وسائل جديدة للتعذيب، بينها الحمامات الساخنة في الباحة الثانية من تدمر. وعلى الطريق الطويل المؤدي إلى الحمامات، كان يغمى على العشرات منا لشدة الضرب...

في أحد الأيام أتى الرقيب فوقف على باب المهجع وقال:

ـ فلتتعرّوا جميعًا وليضع كل واحد منكم عليه حرامًا... وليأتِ بليفته وصابونته... يقولها من باب السخرية، إذ لا صابون معنا ولا من يحزنون... أمهلنا دقيقة واحدة قبل أن يقتحم الباب، فاستعددنا بسرعة البرق وخرجنا بالقطار المستطيل[١] كمن يخطو مسيرة الألف ميل نحو المجهول... لا تفارقنا جلدات الأسواط ولا نسلم من

(١) أن يُربط السجناء بعضهم ببعض مثل القاطرة والمقطورة.

الركلات... لم يخرق جدار الألم يومها سوى صراخ المساجين من لوعة النظافة... وضريبة الاستحمام في الأسر.

بعد حين انقسمنا إلى خمسات، فدخل الفريق الأول على أن ترش المياه على الواحد ما لا يزيد عن النصف دقيقة. أما هذه الأخيرة فتارة باردة كالثلج وطورًا تحرق كالنار...

خرجنا فأجلسونا على الأرض. وكان بيننا من نسي حرامه في الحمام فجُلد نصب أعيننا عاريًا.

ودرب العودة إلى المهجع هي نفسها درب الانطلاق منه... مع كل ما يعني ذلك من ضرب.

قبيل دخولنا، خبّأ الرقيب أحد المساجين وأمر رئيس المهجع بعدّ الصف. وكنا لكثرة الخوف نقف عشوائيًّا، فخيل إليه أن التعداد كامل لم ينقص منه أحد.

- سيدي، المهجع كامل التعداد.

- وهذا السجين من أين أتى؟! قالها الرقيب وهو يدفع بصديقنا المخبّأ إلى الصف.

عوقب الرئيس بكسر ضلع بعد أن ضربه أربعة عسكريين بكل ما أوتوا من ضراوة وشراسة... وبقي هذا الأخير يبول دمًا للأيام الثلاثة المقبلة...

موعد الحمام أول يوم اثنين من الشهر. وكان أحد المأسورين، واسمه جوزيف ضاهر من البترون، يتعثر ويقع أكثر من عشر مرّات

في طريقه إلى الحمام لكثرة رعبه، ما جنّبه الضرب مدّة حمامين إذ أمر الرقيب بأن يبقى داخل المهجع ظنًّا منه أنه مريض...

يأخذ روتين العمل اليومي في الأسر مجراه بعد التفقد: فيقسم الغذاء تبعًا للوجبات ليأكل الجميع. بعد ذلك نسلّم الصحون البلاستيكية للجلي.لهذا قسمنا إلى مجموعات قوام الواحدة منها خمسة أشخاص، تُسَمّى «قصعة»، على أن تقوم كل واحدة وفق دورها بجمع الصحون، وغسلها، وشطف المهجع وترتيبه، ورشّ المياه خارجه. ويتولى المهمة الأخيرة الشباب بيننا، فيما يدخل الأقوى من بينهم الطعام الذي يوضع لنا عند الباب، نظرًا إلى ما ينتظرهم عندها من ضرب مبرح من قبل رجال الشرطة. كذلك، اعتنت المجموعات الباقية بتسليم أكياس الخبز الفارغة بعد غسلها. وكانت في بعض الأحيان تُعاد خياطتها تكبيرًا أو تصغيرًا، فتصنع منها أكياس لرمي النفايات، أو تُشبك خرقًا نضع فيها الثياب المتسخة، أو تُفرد خيطانًا وحبال غسيل... أو نشبك منها خيطانًا لتقطيب الجراح وتنظيف المتقرحة منها.

ويُعنى الفريق الطبي داخل المهجع، على رأسه طبيب نلقبه المسؤول الصحي، بجمع القطنيات وغسلها ثم تقطيعها إربًا إربًا لتحلّ مكان الشاش، فنملأ بذلك نقص الشاش والأدوات المعقمة. وقد استعضنا عن الإبر الخاصة بإبر الشك، وكان يلزمنا للجرح الواحد ست إبر شك على الأقل، ندخل منها الخيط لنخرجه من الجهة الأخرى للجرح... حيث تستعمل الإبرة الثانية وهكذا دواليك... ثم نعيد غسلها وتعقيمها بالمياه والصابون، فنستعملها مرارًا وتكرارًا، حتى إننا كنا نشذّب أطرافها على الحائط كلما دعت الحاجة...

في تدمر أيضًا، يُسأل السجين عما يحتاجه من أغراض ليرسلها الأهل. غير أنها تنتهي بغالبيتها مسروقة من قبل آمري السجون. فترى المدخّنين يقلقون على حصتهم من السجائر، والمرضى يسألون عن الدواء، والعراة عن بعض الثياب، والجائعين يشتهون رائحة الطعام...

من جهتي، لم أبدل ثيابي من تاريخ اعتقالي حتى ١٩٩٠، فقبعت في السجن كما دخلته إلى أن اهترأت ملابسي الداخلية تمامًا. وقررت بعد عدد غير محدود من المعالجات أن أقطّع سروالي الداخلي وأحوّله إلى مناشف... قصصته أربع قطع، سميت كل واحدة منها منشفة وأهديت أفضل ثلاثة من أصدقائي واحدة بعد أن غربلتها جيدًا... فأصبحنا بذلك أربعة مساجين نتمتع بمنشفة نستعملها عند كل غسيل... وحسدونا. بقيت أتساءل ما العمل؟ وأي حياة تلك التي تهبنا قطعة ثياب داخلية نحولها منشفة ونحسد عليها...!

في أواخر الـ١٩٩٠، جاء مدير السجن في تدمر يسألنا من منا يحتاج إلى ملابس داخلية. ولشدة الخوف من العقاب لم يجرؤ على الإجابة إلا عشرة مساجين من أصل مئة وخمسة. فأعطونا قطعة ثياب وقميصًا ذكّرني، لفرحي به، بيوم ابتاعت لي والدتي المرحومة بنطالًا وقميصًا للعيد... بل وفرحت أكثر إذ كانت المرة الأولى منذ أربع سنوات أعاين فيها اللون الأبيض الناصع.

في السنة التالية سألونا من منا يحتاج إلى «شحاطة». تشجع الشباب وحصلنا جميعنا على أحذية. وكنت عندها أملك واحدة ورثتها عن صديق لي غادر الزنزانة، وقد أعطيته حذائي الخاص شرط

أن يذهب ويبلّغ زوجتي عن أحوالي بالتفصيل... وأعطاني بدلًا منه «مشاية» بلاستيكية...!

عندما بتّ أملك اثنتين، فكرت بأن أحول الثانية إلى حذاء فقصصت القسم الأعلى منها واحتفظت بالكعب. ثم فصّلت قطعة قماش من نوع «ساتين» وألصقتها بالكعب، فتحولت خفًا جميلًا مثل ذاك الذي ينتعله بروس لي في أفلامه...

رآه الرقيب مرة فعاقبني بعد أن علم أنني صنعته بنفسي وصادره. في اليوم التالي وجدته ينتعله، فحزنت كثيرًا...

دعوت الله أن يقصّر عمره وعمر حكومته لكثرة ما سرق مني... وإن غدًا لناظره لَقريب.

النوم في تدمر

لعلّ الوقت الأقل راحة في السجن هو الوقت الوحيد المخصص للراحة. وكان الحراس، أو على الأقل المسؤولون عن السجن، يعتبرون نوم المساجين ترفًا لا يقبلون به، فيعمدون إلى تحويله لعنة أخرى من لعنات تدمر اللامتناهية.

هكذا، نستلقي تبعًا للمساحة والكثافة، وقد ضاقت بنا الزنزانة في الكثير من الأحيان، عندما يصل عديدنا إلى ١٤٨ موقوفًا، أي بمعدل ٢٠ سنتيمترًا للنوم للشخص الواحد. بذلك، عمد كل سبعة منا لتقاسم عازلين، (والعازل هو قطعة شادر ومعها حرام ولا يتجاوز عرضها الـ٧٠ سنتيمترًا)، فنضطر إلى أن ننحشر، فيضع ثلاثة أشخاص أرجلهم على

كتف وظهر أحد المساجين فيدفعون بالآخرين إلى تضييق المسافة كليًّا... وهكذا دواليك إلى أن ننام جميعًا. أقسم بأن سمك السردين في علبته ميسور الحال أكثر منا.

أذكر أن حصة السجين في السنتين الممتدتين بين الـ١٩٨٩ والـ١٩٩١ لم تتعدّ الحرام والعازل الواحد، رغم برد الصحراء القارس ليلًا. كما ذكرت فإن موعد النوم يبدأ من الساعة السادسة والنصف مساءً لغاية السابعة صباحًا... أو وفق مزاج الرقيب.

أما في الصباح فكنا نلتف بـ«اليطق»، (الحرامات)، ونجلس القرفصاء، إذ ممنوع علينا السير داخل المهجع.

كان في إحدى زوايا الزنزانة جورتا مياه لقضاء الحاجة. وبما أن كثرة الممنوعات ضيّقت ساعات النوم وحرمتنا المشي في غير موعدها إلى الحمامات، اخترعنا «مبولة» فقطعنا غالون الماء ووصلنا به أكياس نايلون حتى باتت كالخرطوم الصغير، خطناه بإبرة من العظم وبخيط من النايلون الذي كانوا يدخلون به أكياس الخبز. أوَليست الحاجة أمّ الاختراع؟!

وصنعنا من الأكياس نفسها حرامًا يقي المسنين والمرضى البرد، كل وفق سوء حاله.

ولعل أحلك الظروف التي عززت فينا بعض الإنسانية هي تلك التي حضّتنا على التكاتف ضد الظلم لنبقى أحياء، كلنا أحياء. على سبيل المثال، تناوب الشباب والأصحاء بيننا على النوم تحت «الشرّاقة»، (أي الفتحة في السقف التي يراقبنا الرقيب أو الحرس من خلالها ليتسلى

بنا). فنبعد المُسنين والمصابين بالسل، أو الذين سبق لهم وتَدَوْلَبوا وما زالوا يعانون من كسور في أطرافهم أو أضلعهم، فنحشرهم في الزوايا حيث لا تطالهم أعين الحراس. وحدث غير مرة أن افتدى أحد الشباب بنفسه مسنًّا أو مريضًا أسموه مُعَلّمًا، فيخلصه من دولاب أو ٥٠٠ جلدة، وهو العقاب الأقل من بين جملة ما يبتدعه المسؤولون من وسائل تعذيب.

الحمّام

بما أن الأدوات الحادة ممنوعة في تدمر، ابتدعنا وسائل قطع ووصل لا تخطر في بال. وفي إحدى المرات صنعنا دوشًا من البلاستيك قطعناه بحدة الخيط! نعم، قصصنا كل ما نريد بخيطان النايلون.

كنا لذلك نستعين بالكلسات أو بقطع الثياب البالية التي نتحايل على أنسجتها، فنعزلها ونأخذ بلفّها على بعضها حتى تصبح متماسكة تمامًا تقطع كالمنشار. فنقطع بها التفاح والبيض لنتوزّعه فيما بيننا.

أما الدخول إلى الحمام فلا يتم إلا من خلال المسؤول عن الأدوار الذي يوزع علينا أرقامًا وندخل بموجبها لقضاء الحاجة مع الترؤف بحالات الإسهال المرضية التي يعاني منها أغلب المعتقلين بيننا. وقد عمدنا إلى عزله عن باقي المهجع ببعض أكياس النايلون التي خطناها بطريقتنا الخاصة، والخاصة جدًا.

وكانت الإدارة تتكرم علينا بثلاثة ألواح من الصابون شهريًا، وقد تتأخر أكثر من ذلك أحيانًا. وكانت تخصص لغسل الثياب والجلي

والاستحمام... لكنها غالبًا ما كانت تذوب قبل موعد التسليم الجديد، فنضطر إلى الاستحمام بالماء البارد لا غير.

أما الأواني والملاعق فكلها بلاستيكية صنعناها بأنفسنا من غالون الماء إياه. فأذبناه بالخيط المحمى على نار غالبًا ما نشعلها للحظات بواسطة زجاجة النظارات الطبية الخاصة بأحد الزملاء. وشكرنا الإله على ضعف نظر البعض بيننا، إذ لولاهم لما عرفنا النار أو الدخان. والتدخين داخل المهجع ممنوع.

كان يسمح لكل مهجع باقتناء مقصّ واحد للأظافر يضعه الحارس بعهدة رئيس المهجع... ويا ويله إذا انكسر... وكان علينا أن نبقي أظافرنا مرتّبة على الدوام. ولخوف رئيس المهجع من أن يكسره أحد السجناء أمرنا الرئيس بأن نحفّ أظافرنا على الباطون لنقلّمها... ففعلنا... أما لرتق الثياب وتقطيبها فنستعين بإبرة من عظمة الدجاج وخيطان من أكياس الخبز البلاستيكية كما ذكرت آنفًا.

فرضت علينا قسوة الحياة في السجن أن نكتفي بالقليل القليل لدينا، وعندما تضيق بنا الظروف نلجأ إلى البدعة، تمامًا كما فعل الإنسان البدائي ليستمر...

إنها غريزة البقاء، أو لعلها مشيئة الحياة التي فينا، والتي دفعتنا إلى مكافحة كل الصعاب لا لشيء غير يوم تكون فيه إشراقة الشمس طلعة حريّة... وما أغلى الحرية!

ومن أكثر ما كان يخيفنا أن يسأل الرقيب أو مدير السجن عن حالات المرض بيننا بخاصة أنهم لم يكونوا ليفعلوا إلا إذا عجز المسؤول

الصحي أو الطبيب السجين في كل مهجع عن معالجة الحالة... وكم حصل...! وتعودنا أن نجد بخاصة بين الإخوان المسلمين أو أعضاء حزب العمل الشيوعي وحتى حزب البعث العراقي أطباء مهندسين. أما في المهجع حيث قبعت، كوننا كلنا لبنانيين لا طبيب بيننا، فقد أتوا لنا بواحد من مهجع الإخوان المسلمين من آل سوادي. وبانت مآثر هذا الطبيب البطولية عندما انتشلنا أكثر من مرة من أنياب الموت، بخاصة عندما أصبنا بداء التهاب السحايا الذي ذهب ضحيته الكثير من بيننا، وأحدهم شاب لبناني يدعى حسن هوشر من إحدى قرى عكار. وهذا الطبيب جراح ماهر، إذ نجح في تقطيب مئات الحالات الناتجة عن الضرب بآلات حادة من قبل الشرطة، ناهيك عن كسر الأيادي والأطراف نتيجة الضرب المبرّح. حتى إنه أجرى عملية نزع الزائدة الدودية لأحد المرضى داخل مهجع من دون بنج.

التنفس

فترة التنفس اللعين المقيت تبدأ من أول آذار وتنتهي مع نهاية أيلول. طبعًا، هي تنفعنا لأن أجسادنا في حاجة ماسة لنور الشمس. ومَن مِن المساجين لا يحب أن يمشي تحت أشعتها؟ يتكلم مع رفاقه، يشرب الشاي أو القهوة، أو «يفقّي» البزر إلخ... طبعًا، الجواب كل مساجين العالم يقبلون مئة في المئة ما عدا مساجين سورية وخصوصًا سجن تدمر العسكري السياسي... هناك التنفس له طعم آخر: فهو وُجد فقط للتعذيب والعقوبة اللاإنسانية، والحط من كرامة الإنسان وحقوقه، وفيه شتى أنواع التعذيب، حيث يُسمح للسجان

بأن يمارس هوايته اللاإنسانية من دون مراقبة من أحد. يبتدع نوعًا من التعذيب وينفذه فورًا، ويسجله باسمه كأنه اختراع يخاف أن يسرق أحد تصميمه منه، مثل بساط الريح من دون سجادة... وهو يتمثل هكذا:

يمسك شرطيان اثنان سجينًا من يديه ورجليه، يلوّحان به في الهواء، يعدّان: واحدًا، اثنين ثلاثة ويرميان به فوق رفاقه على رؤوسهم وظهورهم... ويسمع صراخ سبعة أو عشرة سجناء متضررين من هبوط بساط الريح فوق رؤوسهم. أو وقفة العز التي يعتز السجان الخبيث بأن يوقف أمامه سجينًا يأمره بأن يغمض عينيه ولا يرفّ له جفن وإلا قلع إحداهما... وبأن يضع يديه مكتوفتين خلف ظهره ويقف متأهبًا مثل الجندي أمام مرؤوسه، ويأمره بأن يرفع رأسه عاليًا، عاليًا، ويلويه إلى الخلف بحيث يبرز بلعومه إلى الأمام، مغمض العينين، مكتوف اليدين، وقفة استعداد. يتركه لبرهة هكذا كي يخيل للسجين بأنه نسي أمره. وبلمحة بصر نسمع شهقة كالتي يرسلها من بلع لسانه وذلك من ضربة جيدو على عنق السجين تقطع أنفاسه، أو ركلة فوق صدره... أو أن يركض و«يتحمّى» كأنه يقفز ويلبطه «لبطة البغل»، يرديه أرضًا من دون حراك. أو أن يأمر جميع المساجين بأن ينزعوا عنهم ثيابهم الخارجية ويبقوا بملابسهم الداخلية ويقول: «الجميع زحف كواع ورِكَب» أي أن ندب على الأربع كالحيوانات، كما يقول لنا. ولكن بدل أن نضع أكفنا على الأرض نزحف على الكوع والركبة، رؤوسنا مطأطأة على الأرض، والكرباج على رؤوسنا وأجسادنا نُضرب به، ضف إلى ذلك الركلات، والشتائم، التي تصب بسرعة هائلة...

ندور، حسب ما يأمر، حيوان ولاه في الأول عاليمين... إنت منيك معلّي راسك تعى لهون. من منكم تدمّى؟ يريني الجرح يُسمح له بالدخول إلى الغرفة.

طبعًا، لا يستطيع أحد أن يتصور الفوضى والخوف والهلع الذي لا نحسد عليه. كل يتلطى برفيقه كي لا يصاب بالكرباج، كل يهرب نحو الحائط، ليتجنب الضرب، والشرطة تلاحقنا تدوس على ظهورنا كي تعيدنا إلى النظام ولكن كيف...؟! أفضل طريقة للخلاص... كما فعلت أنا ودخلت باكرًا إلى الغرفة، حففت ركبتي بقوة على الباطون فجُرحت وسال الدم، وكذلك الثانية. وضعت يدي على الركبة نقلت الدم إلى كوعي اليمين واليسار ووضعت قليلًا من الدم على أنفي ووجهي... رفعت يدي المدمّاة وقلت: سيدي الدم يسيل مني... ركلني وضرب الكرباج برأسي وأمرني بأن أدخل الغرفة. كنت أول الداخلين، وخسارتي طفيفة: جرح على الركبتين اليمنى واليسرى، كرباج على رأسي ولبطة على قفاي... الحمد لله كانت خسارة بسيطة بالنسبة إلى غيري. منهم من ضُرب بقسطل إنش ونصف على الظهر، أو ركب الرقيب العسكري على ظهره مثل الحمار، أو جرّه حتى تدمّى، أو لطمه ليرى الدم... هذا ما يُسمى كواع ورِكَب.

ومن الإبداعات في التّعذيب أيضًا، تعصيب العينين دون عصابة، (طمّاشة)، وهي أن يضرب رأس السجين بالكرباج العريض من الأمام، أي إذا أراد إغلاق العين اليمين يضرب الكرباج من الأمام على وجه السجين من الجهة اليسرى فيلتف الكرباج على الرأس من الجهة الخلفية إلى الأمام بقوة هائلة ويلتطم بالعين اليمنى. تنغلق العين

تتورم على الفور وفي اليوم التالي حين يطمئن السجين بأنه مصاب فيفلت من العقاب يسأله الرقيب: ليك شو بها عينك؟ فيجيبه أنه وقع في الحمام. يقول الرقيب: علِّ رأسك شوي. يمتثل السجين للأوامر. ومن دون سابق إنذار يأتيه الكرباج التالي من الجهة اليمنى ليلتف على عينه اليسرى وبهذا تتورم العين الثانية. وتبقى مغلقة مدة ١٢ يومًا... أقولها لأنها حصلت معي مرة واحدة لعينيّ الاثنتين، ومرات عدة لعين واحدة. بعدها تفتح العين المحمية من الله وهو القادر الشافي. أو لعبة الهرم وهي سريعة لكنها مؤذية: يطلب العسكري من السجين المعاقب أن ينام على بطنه ويفتح ذراعيه. ينبطح الثاني بشكل صليب فوق رفيقه والثالث يأخذ وضعية الأول والرابع وضعية الثاني وهكذا حتى العاشر. وبذلك يصبح الضغط فقط على الصدر والمعدة. والأشدّ أذىً طبعًا هو الأول.

ووفق الهرم تخف العقوبة... مرات عدة حدثت هذه العملية، أي الهرم، ونجا واحد فقط من دون كسر في ضلوعه. يبقى كسير الضلع خمسة أشهر ليشفى منه، هذا إذا نجا من ركلة عليه أو دولاب. أليس الله هو الشافي؟!

هذا جزء بسيط من عذاب التنفس أو التشميس إذا جاز المعنى. بالله لو كنت مكاني هل تريد تنفسًا كهذا؟ هل كنت تحبه وتنتظره؟ أم كنت تلعن وتكره فصل الربيع والصيف كله؟! أترك الحكم لك. لذلك، كنا نكرهه ونخاف منه.

تبدأ فترة التنفس على النحو الآتي:

يصرخ الرقيب قبل فتح الباب: باحة، جهّز حالك. تنفس.

الباحة تعني الغرف التسع. في هذه الباحة يقول مهجع ٨ جهز ماء لرش الباحة. فورًا يكون عشرة مساجين، كل واحد منهم بيده غالون ماء سعة ٢٠ ليترًا واقفًا على أهبة الاستعداد مثل الإطفائيين. يفتح الباب، ويأمر: الجميع برا. يركض كل واحد إلى غالونه ويقفون جنبًا الى جنب مطأطئي الرؤوس، عيونهم شبه مغلقة ويسمح لهم فقط برؤية الأرض وحذاء الرقيب. يأمرهم بالانطلاق فيبدأ رش الماء يمنة ويسرة، الأرض غير مستوية، وهي من الباطون. لكن، من كثرة الوحشية والضرب وعشرات آلاف المساجين، وقدم العمار، تفسّخ الباطون واهترأ فأصبحت الباحة محفرة. بعض الأماكن فيها حفرة كبيرة تُعبأ بالماء وتخلط بالتراب فتصبح موحلة وفيها حصى كبيرة وصغيرة. بعد الانتهاء من رش الماء يأمرنا بالخروج، وكما ذكرت سابقًا، نجلس على الأرض، تتسخ ثيابنا وتهترئ من الحفر. وإذا أراد أن يتسلى الرقيب يأمر أحد المساجين بشرب الماء الموحل من الحفرة أو يقلّد الحمار كيف يتمرغ على الأرض، وكثيرًا ما كان يسأل أو يطلب من أحدنا أن يقلد القرد أو الكلب أو الهر أو البغل، وإذا رفض يعاقب. وكنا في هذه الحال، ونحن نعرف بعضنا بعضًا، نطلب من المقلد أن يأتي وهنا تكون لحظات سعيدة لحين انتهائه من التقليد، نضحك ولكن بصمت...

مرة طلب من مجنون كان معنا أن يقلد غوار الطوشي، دريد لحام، قلّده جيدًا وقبل أن ينتهي قال المقلد بلسان غوار: يا حافظ، (ويعني الرئيس حافظ الأسد)، ليش معتقل هالشباب استحِ على شرفك وأخلِ

سبيلهم مو حرام عليك؟ صارلن عشر سنين مو شايفين أهلن، يلا خييو انطق هالكلمة! فصرخ الرقيب بصوت مرتجف: الجميع وقوف، إلى الوراء در، إلى المهاجع. وبسرعة دخلنا... وربما كانت من المرات القليلة التي ندخل فيها دون عقوبة أي دون كابلات على ظهورنا أو ركلات على مؤخراتنا؟ (طبعًا الرقيب خاف من العقوبة، لا يسمح له حتى بالكلام مع المساجين فكيف بذلك؟!).

وفاة الموقوف اللبناني حسن هوشر

وعن وفاة حسن هوشر أخبركم ما يأتي:

كانت الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان المبارك، أي ليلة القدر، أي أن المسلمين المؤمنين منهم يطلبون من الله كل ما ينقصهم والله سميع مجيب، ونحن طلبنا الطلب الوحيد وهو إخراجنا وتخليصنا من بين أيدي الشرطة السورية، وإبعاد الظلم والضرب والعقوبة اللاإنسانية الحاطّة بالكرامة، وإعادتنا إلى بلادنا وعيالنا فقط. معظم المساجين في المهجع من المسلمين صائمون... بينهم صديقي حسن.

إفطارنا كان مؤلفًا من شاي بارد من الصباح وملعقة من اللبنة ونصف فنجان من المرقة الحمراء وبرغل بارد، المهم بارك لنا الله بهذا الأكل وأصيب حسن بإسهال شديد. وبعد قرابة الساعتين تبع الإسهال إعياء مريع. عند الثانية صباحًا اشتد المرض على حسن، فقرع المسؤول الصحي الباب مطالبًا بحضور طبيب مختص. بعد محاولة إسعافه وفق خبرته القليلة وهو سجين متطوع بالصليب

الأحمر اللبناني لم يعرف كيف يعالج الموقف. ونحن نيام نخشى التحرك مخافة التعليم...

قرع المسؤول الصحي ثانية فأتى الرقيب:

ـ شو فيه ولاه منيـ...؟

ـ عندي حالة قيء وإسهال شديد وبدنا طبيب...

ـ كول خـ... ولاه! لأيـ... يموت! بس بتدق الباب لمّن يموت. وذهب.

بعد برهة دق الباب مرة ثانية فأتى الرقيب نفسه:

ـ ليك منـ... إنت رقمك ١ ورئيس المهجع ٢، والشرمـ... المريض رقمه ٣، الصبح بفرجيكم.

للمرة الأولى في تاريخ تدمر تشجع سجين فقرع الباب ثالثة. كانت الساعة الرابعة تقريبًا...

ـ شو في منايـ...؟

فأجبته:

ـ نريد كيس مصل لأن المريض فقد كل الماء بجسمه وبدأت عيناه تضيقان...

ـ رقمك ٤! لمن يموت بتدقوا الباب.

الخوف والهلع شلاّ تفكيرنا، منا من قال ارفعوا رجليه إلى أعلى لينزل الدم إلى رأسه، ومنا من قال افركوا رجليه ورأسه، ورفيقنا حسن يتلوى غائبًا في دنيا أخرى، مرّ علينا الزمن ببطء. روحه بين أيدينا لا نستطيع مساعدتها، ولا يوجد لدينا إبرة لننقل له الدم. صلّينا

له جميعًا باكين عليه وعلينا، فإن لم يتدخل القدر ويوقف هذه المسخرة فهو السابق ونحن اللاحقون.

قرعت الباب مثنى وثلاث، وكان الجواب من الشرطي الحقير نفسه... «ليمت حفظ أير...».

لم تطل الحال برفيقنا حسن ففارق الحياة... وكانت الساعة تشير إلى ٣:٤٥ دقيقة صباحًا. قرعنا الباب فأتى رقيب آخر.

ـ شو فيه ولاه؟

ـ المريض مات.

ـ حفظ أيـ...! عقبال الجميع! ناموا الصبح منشوف.

أما حسن المسكين، رحمه الله، فصلينا على جثمانه ليلًا وغسلناه على الطريقة الشرعية...

كانت المرة الأولى التي أشاهد بها كيف يُغسل الشهيد وكيف يُصلّى عليه. وسمعت رفاقي يقولون إنه دخل الجنة، لأنه شهد على روحه وكانت ليلة القدر.

فقط المرحوم رفيقنا حسن نام بهدوء تام. لم يشعر أو يتقلب أو يخف التعليم، ونحن نغسله ونلبسه ثيابه ونكفّنه... الجميع قال من تحت غطائه خائفًا من المصير نفسه، منّا من فرح لرفيقنا حسن لأنه خرج وتحرر من السجن بالغصب عنهم، ومنا من قال أهله ينتظرون عودته ليفرحوا بزواجه بابنة عمه كما روى لنا، ومن قال اللعنة عليهم وعلى المسؤولين الكلاب الذين يسمحون لعساكر من دون رحمة ومسؤولية، بالتحكم بمصيرنا وحياتنا وقدرنا... لهم الحق إما بموتنا أو بحياتنا! هم القدر! ومن قال متل طيزي اللي بدو يصير يصير...

هم لا شيء هكذا كُتب لنا. ونحن مؤمنون وأنا عاهدت نفسي أنّني إذا كتبت لي الحياة سأكتب مذكراتي وأنشرها ليعرف العالم بأسره الحضارة والأخوّة التي مارسها نظام البعث... وبذلك يكون عقابهم الكبير في الدنيا، وإن الله يمهل ولا يهمل.

على غير عادة فُتح باب المهجع الساعة السادسة صباحًا. وكان مدير السجن ونائبه وطبيب السجن العسكري يقفون قبالته. فنادى المدير على المسؤول الصحي ورئيس المهجع، ثم أمر اثنين من السجناء بإخراج المريض للمعاينة من قبل طبيب السجن، وبعد فحصه قال: أدخلوا المريض الآن، وسينقل في وقت لاحق إلى المستشفى.

أدخلنا الشهيد إلى المهجع ثانية وتجمهرنا حوله لا نعرف ماذا سيحل بنا أو به. سأل مدير السجن الذي طبعًا اقتنع بأنه ميت:

ـ كيف حدث ذلك؟

فأجبناه كما أمرونا، وقلنا إن حسن وقع داخل الحمام ومات.

ـ وهل نحن أو أحد الرقباء قصّر معكم؟

ـ لا، هذه حياته لحدّ هون وبس...

ـ ما عندكم طبيب؟

ـ لأ، سيدنا.

فأمر مدير السجن نائبه بأن يأتينا بأحدهم فجاء السوادي، وهو طبيب سوري موقوف من الإخوان المسلمين، الذي أعطي للمرة الأولى صلاحية عليا وهي فحص المرض وتشخيصه، واشترط أن تُلبّى

كل مطالبه من دواء وأكل. وكان الالتهاب بدأ يتفشى بيننا، فأصيب سبعة وتسعون سجينًا من المئة وخمسة.

علّق المصل للمعتقلين كافة، وحظينا للمرة الأولى بالشاي الساخن مع كميات كبيرة من البطاطا المسلوقة بمعدل رأس واحد لثلاثة أشخاص. أما حسن هوشر فأخذوه من المهجع عند السابعة والنصف. وعلمت في ما بعد أن الجثة سلمت إلى ذويه ومنعوا حتى من فتح النعش.

بعد انقضاء عشرين يومًا انحسر المرض بفضل هذا الطبيب الشجاع الذي جابه كل الرقباء وطلب الأدوية التي يحتاجها. ومن يومها بات عندنا في المهجع سائل تطهير للجراح، شاش، أكياس مصل والكثير من الأدوية. والحق يقال إنها أهدأ فترة عشناها في سجن تدمر اللعين حيث ارتحنا من الضرب واللكم والرفس والكرباج للمرة الأولى وحل مكانها الشتم المتواصل وتعييرنا بالوسخ وقلة النظافة؛ (علمًا أن الصابون كان من الممنوعات أحيانًا).

الأكل

تتفاوت حصة الطعام اليومية للشخص الواحد وفق مزاج الرقيب الموزّع، وتبعًا لبُعد المهجع عن مركز الطعام. ويوجد في سجن تدمر العسكري السياسي ٧ باحات في كل واحدة منها ٧ أو ٨ مهاجع. وللباحة باب حديدي وسور يفتح على الباحات الأخرى، ما خلا الخامسة حيث الزنزانات المنفردة والمزدوجة.

في كل مزدوجة خمسة مساجين وتحتوي سريرًا من الباطون بعلوّ ٤٠، وعرض ٧٠ وطول٢٠٠ سم، وجورة لقضاء الحاجة مع حنفية مياه.

أما مهجعنا في الباحة الثانية فتقسم حصته من الطعام كالآتي: ثلاثون بيضة مسلوقة مع إبريقين من الشاي البارد للفطور... للسجناء الـ١٢٥...! ووجبة الغداء جاط من البرغل مع جاط من المرقة، فتكون حصة الفرد بذلك ملعقتين من كلا الصنفين. وفي المساء بطاطا مسلوقة، بمعدل رأس واحد لأربعة أشخاص، أو نصف كاسة من الشوربة... وهي كناية عن بعض حبيبات العدس المجروش بالسوس الذي فيه... كنا لا نأكل اللحمة إلا أيام الأربعاء، والأعياد الرسمية حيث يأتون لنا بفروج واحد لكل أربعين سجينًا على أن تكون وجبة الغداء في الأربعاء الذي يليه عشرين غرامًا من اللحمة للفرد. وتنص قوانين السجن في سورية على ألا تقل حصة الفرد من اللحمة أسبوعيًّا عن الـ ٨٠ غ. مقابل ١٦٠غ. من المرقة مع بيضة واحدة. أما الفاكهة فلا تصلنا إلا مرة كل أسبوعين، بمعدل تفاحة أو برتقالة واحدة لكل ٥ مساجين، وقد تكون بطيختين للسجناء الـ١٢٥... نوزعها بالعدل والحق كما توزع جوائز اليانصيب. فيدير أحدنا بوجهه عن الحصص ويسمي صاحبها دون أن يعرف للقطعة حجمًا... وهلمّ جرًّا. في الأعياد الرسمية تُستبدل الفواكه بالحلويات. وحرصًا من أرباب السجن على صحّتنا لم تبلغ حصّتنا من السكاكر الـ٢٠ غ. مخافة داء السكري...! والكوليسترول!

أما مياه الشرب فمتوافرة بكثرة، غير أنها كلسية وساخنة نظرًا إلى وجود القساطل فوق سطح المعتقل حيث تضربها حرارة الشمس.

لهذا، لا تجد أجسامًا ممتلئة بيننا. ولو أراد أحدهم تخفيض وزنه لفقد ما لا يقل عن ثلاثين كلغ. في أقل من ثلاثة أشهر...! ويتراوح وزن السجين في تدمر بين ٤٥ و٧٠ كلغ. وطبعًا النسبة الكبرى هي ٦٠ كلغ. وأقل...

إضراب جائع عن... الحياة

تجرأ أحد المساجين يومًا على الإضراب عن الطعام... لا لشيء سوى أنه سئم البقاء معلّقًا بين الحياة والموت. فقرر أن يختار. ولم يعلن عن قراره إلا بعد مضي ثمانية أيام من دون مأكل أو مشرب.

وفي تدمر، كنا نعيش إضرابًا جبريًّا مستمرًّا، نظرًا إلى رداءة الطعام وقلّته. وكانت الإدارة هناك تتعمد تجويعنا في عملية اغتيال منظّمة، فتزودنا بأقل ما يمكن لتمدّ في أعمارنا التي قصّرها الإذلال...

راح زميلنا المضرب يترك حصته المؤلفة من خُمس بيضة مسلوقة وملعقتي برغل مع المرقة ورُبع حبة بطاطا، ومضى مصممًا بقوة غلبت ضعف إنسانيته حتى لم يعد يقوى على النهوض.

وخاف رئيس المهجع، واسمه نزار الحلاق، من العقاب فيما لو اكتشف الرقيب حال زميلنا المتردية يومًا بعد يوم. وعبثًا حاول إقناع الزميل بالعدول عن الموت... هدده بفضح أمره إذ لو مات أو عاش فالأمران سيّان بالنسبة إليه... ولم يقدر الحلاق على كتم الأمر أكثر، فاتفق مع جميع من في المهجع على أن يقولوا للرقيب إنهم لم

يدركوا مشروع السجين المضرب، فيعفى رئيس المهجع من القتل ضربًا وتعذيبًا... فقلنا إنه كان يرمي الطعام في الحمام.

أعلن الخبر... وجاء وقعه على الإدارة كخبر فرار أحد منا... كارثة وضربت جدران تدمر. وعلا الصراخ: «كيف يجرؤ كلب مسعور على الإضراب عن الطعام؟ وفي تدمر؟ الأكل لا يكاد يُشبع هرة شبعانة! ونحن نعطيهم هذا القدر كي لا يفكروا في الإضراب... سيرون، أما هذا الشرمـ... رئيس المهجع فحسابه عندي. عيّنّاه في منصبه المحترم ليكون مخبرًا... رح نفرجيه نجوم الظهر».

وقع علينا كلام الرقيب من الخارج وقعة الرعب، ممزوجًا بصفير السياط الذي سمعناه من خلف الباب.

أحسست بأني لن أقوى على تحمّل الهلع والتهديد، فرحت أصلي في الديانات كلها، أطلب إلى الربّ أن يخلصني من عذابي.

فُتح باب الزنزانة فجأة، وتجمّد الدم في عروقي، وكأن قلبي توقف عن العمل فجأة. لم أشعر إلا برفيقي يشدّني نحو الحائط لنختبئ من الرقيب.

يرموننا بين أنياب الموت... يعذبوننا... يجلدوننا... بالسياط، والعصي والكرابيج، وبالحجارة يرجموننا، بالماء والكهرباء... ونجرؤ نحن على العيش... لعنة الله عليهم.

ـ «الكل لبرّا! وضع تنفّس ولاه عر...!».

خرجنا كما لم نخرج يومًا، فلا خمسات ولا من يحزنون، وتدافعنا

هربًا من الغضب... فتلقينا الركلات والضرب من جديد. طبعًا كنا ننتظر العقاب، فراح السجناء لشدة الخوف يطلقون الريح حتى باتت الرائحة لا تطاق...

كالعادة، المعركة غير متكافئة، ونلنا نصيبنا من القصاص، لا يحمينا غير الصلاة والدعاء إلى الله الذي لم يتمكنوا من نزعه من صدورنا...

انهالت على أجسادنا المرتعدة الكابلات من كل صوب، وتبعتها قضبان الحديد ٦ ملم... ثم جاء دور رفيقنا المضرب عن الطعام. رفسه الرقيب وصاح به:

ـ افتح فمك!

وأمر رئيس المهجع بإطعامه، دون جدوى... عندها سأل الرقيب السجين عما يريد، فأجاب بصوت تخنقه الحسرة ويخرجه الهلع ودون تفكير:

ـ أن تنقلني من هذا المهجع، وأن يزورني أهلي...

ـ بس هيدا مطلبك؟

ـ ... ولا أريد الخروج إلى التنفس.

ـ والله والله ثم والله، (قالها الرقيب ثلاث مرات)، قسم عظيم عندي، رح حقق لك مطاليبك، بس بدي تفتح عينيك وتشوفني لأني أقسمت يمينًا... افتح عينيك وشوفني، بس اشرب نقطة مي وبكرا بنقلك إلى غرفة تانية... وسوف أرسل كتابًا إلى إدارة السجون كي يسمحوا لك بالزيارات... يلّا حبيبي اشرب...

وشرب السجين... ففك إضرابه بوعد كاذب... فلا نقله ولا زاره أهله.

والسجّان الإنساني لا يخدم في تدمر. فدورة الحياة الجهنمية في حبسهم هناك تتطلب أناسًا آليين، مجردين من القلوب يدارون بآلات التحكم عن بُعد. وكيف يضرب إنسان أخاه حتى الموت إن لم يكن مغمض العينين معدوم الإنسانية؟!

وجاء دور رئيس المهجع من جديد، فأمره الرقيب بأن يركع عاري الصدر... كنا نتخيل ما يحدث من دون أن نراه، لأن أيًّا منا لم يجرؤ على رفع عينيه خوفًا من الرقيب، أو ذعرًا من المشهد... من يدري، فالأمر واحد... وصاح الرقيب:

ـ جيبولي صباح... بدي خليها تزلغطلك، هيدي نفسها طويل ورئتاها قويتان؛ (وصباح، كما سبق وذكرنا كابل من الكابلات يسميه كل كما يريد). ثم نادى الشرطي:

ـ جبلي لقمة الخبز اللي معك!

ـ سجين، افتح يدك وحطّ هاللقمة بتمّك...

أحسّ السجين بمادة لا تشبه الخبز، كائن صغير مدور، فارقته الحياة على الأرجح منذ مدة لا بأس بها... ورائحته نتنة جدًا...

ـ ابلع هاللقمة من دون ما تمضغها.

امتثل السجين، وما لبث أن أحس بأن «اللقمة» أكبر من أن تمر في زلعومه... فأخذ يشهق بحثًا عن الهواء، وبدأ نَفَسه بالانقطاع.

سمعنا السياط ترسم خطوطها على ظهر زميلنا، ولعل الرقيب والشرطيين لم يعرفوا كيف يردون الهواء إلى رئتي السجين بحضارة أكبر...

جلدوه ٣٠٠ مرة، حتى بات لونه كحليًا اختلطت زرقته بسواد الاختناق إلى احمرار الدماء المتخثرة في عروقه لشدة الضرب... هذه المرة لم يقصدوا سوءًا... أرادوا فقط معاينته ليبلع لقمة الفأرة الميتة، وجبته الأولى الكاملة الدسم منذ سنوات طويلة... فعلًا، لم يقصدوا سوءًا وهو يشهق...

وسمعنا الرقيب يصرخ:

- اترك رجلي ولاه، اترك رجلي عم قلّك ولاه!

قدّرنا أن تكون الفأرة وصلت إلى باب معدته، ولكن استمرار شهيقه أوحى لنا أن ذيلها كان لا يزال عالقًا في مجرى الهواء... وعلمنا من تغير نبرات صوته الأجش أن مكروهًا لا بد أصاب أوتاره الصوتية، حين راح يصرخ:

- مي، مي.

سمعنا قرقعة كأن انفجارًا وقع في معدته عندما ناوله الرقيب كوب الماء، تلاه تقيؤ وإعياء شديدان.

أمرونا بالعودة إلى المهجع، فدخلناه كخراف تسرح بينها الذئاب، بطريقة عشوائية سادها الرعب والفوضى...

قصة زميلنا نزار حلّاق التي فاقت كل التصور والعقل، حتى إنها

تجاوزت قصتي مع العصفور الميت والـ١٧ صرصورًا... حتى قصة زميلنا نافذ عبدالله الذي أكل براز الهرة يابسًا. عندما دخل نزار إلى الغرفة رأينا ظهره الملون كقوس قزح والدم ممزوجًا بماء يسيل من تحت جلده، وعينيه بارزتين وكأنهما على مستوى جفونه، فمه مدمًّى من أثر جرح في بلعومه، وركلة على خده، فجرح في البلعوم وآخر داخلي من خده... لا صوت له. اختفى كليًّا. تلاحظ وتفهم عليه، من دمع عينيه، المنساب منهما باستمرار يومئ لك، وأنت أمام هذا الإنسان المنتهكة كامل حقوقه لا يسعك إلا أن تشاركه البكاء والصلاة والدعاء لله بأن يتجاوز محنته في أسرع وقت ممكن، وتكرر الصلاة بأن يبعد الله عنك مثل هذه المحن...

بقي زميلنا من دون صوت، ولزمه خمسة أيام حتى يشفى بلعومه وأصبح يتقبل لقمة الخبز الممزوجة بالماء، والتفاحة المطحونة المدقوقة والناعمة... لكن مسحة الحزن لم تفارقه أبدًا. وأطلق عليه الرقيب الكلب اللئيم اسم: الفأرة. وعليه الإجابة بـ«حاضر حضرة الرقيب!».

بقي نزار حلاّق يتقيّأ لأكثر من ستّة أشهر، يرفض الطعام، أسعفناه بما تيسر، فامتنع المهجع بأكمله عن تناول الفاكهة، متنازلين عن حصتنا كرمى لصحة زميلنا المتدهورة. تورمت رجلاه ومرض... ومن العوارض التي أصابته: تورم دائم في رجليه ويديه بحيث لم يعد يستطيع وضع رجليه في الحذاء ولا حتى المشي. مرض في أمعائه شبه دائم وتمر أيام عدة لا يتقبل فيها الأكل أو حتى المياه، يتقيأ كل ما يدخل معدته... باختصار عاش مع الدواء، ذبل، خسر الكثير من

وزنه، وحتى قليلًا من ذاكرته. الأمر الذي استوجب نقله مرات عدة إلى مستشفى صيدنايا العسكري، وهناك أفضل بقليل من السجن. ولكن طريقة وضعه في السرير سيئة جدًا إذ توضع الأصفاد في رجله اليمنى مع جنزير طوله متر ونصف المتر كي يتحرك ويذهب يجرّ السرير خلفه... بقي هكذا حتى أتى الفرج الكبير وخرج بعفو خاص في ٢٠٠٠/١٢/١٥.

نزار اليوم حر، وهو في فرنسا.

أحد الإسلاميين المتشدّدين اسمه رامي جناد كان أحد أمراء التوحيد، ولسوء حظه كان رئيس المهجع من حزب آخر لا يمتّ للإسلاميين بصلة سوى الاسم فقط. كان من المدينة نفسها طرابلس، وعلى خلاف مبدئي في ما بينهما. وكما قلت عندما يطلب من رئيس المهجع معاقبًا أبديًّا أو معلّمًا ولا يوجد يستعاض برئيس المهجع بدلًا، المهم لا ترجع سلة الرقيب فاضية. وعادة نعرف مدّة درجة حمق الشرطة من المهاجع التي تسبقنا، عندما نسمع عويلًا وضربًا وصراخًا نبدأ بالارتجاف، وتصبح رائحة المهجع أي الغرفة لا تطاق. وبقراءة آيات من الذكر الحكيم «كل على دينه». هنا، نعرف رئيس المهجع ونختبر قوته، فالجبان يرمي رفيقًا بريئًا له، خارجًا إلى الشرطة ليكون فداءً لنفسه وللجميع. كما كان المصريون القدماء يقدمون البنات قربانًا للنيل. وعندما أتى دور مهجعنا وفُتح الباب وقُدّم الصف كما ذكرنا آنفًا... سأل رئيس المهجع هل لديكم معلّم، أجاب نعم، وخرج وحكى للرقيب كلمات لم نسمعها، فقال الرقيب: جيب ابن القحبة، وذهب وأتى بـ ر. ج. وأمره الرقيب بالانبطاح وضعية دولاب وبدأ

يضربه خمسمئة ضربة كابل بالتمام والكمال، أحصيناها له وهو يستغيث بالله وبجميع الأنبياء والرئيس الأسد ولم يُترك إلاّ بعد أن فتحت رجلاه والدماء سالت وبانت العظمة من باطن رجله اليسرى وأدخلناه المهجع حملاً والكوابل تسقط على رؤوسنا كأننا في معركة حامية.

علمنا من المعاقب بأنه كان يصلّي، هكذا قال له الرقيب: فوت هلّق صلِّ ليشفيك الله. وآلاف القصص حصلت معنا كهذه الحادثة، تصوّروا هذا السجين الذي يروي قصته ولم يقضِ في تدمر إلا ٥١ شهرًا، (١٥٤٦ يومًا وليلة)، وفي كل ليلة ويوم تحدث معنا قصة. ولو أردت أن أسرد ما حدث معي ومع رفاقي بالتفصيل فسأحتاج إلى خمسة عشر ألف صفحة وربما لا تفي بالغرض.

الزيارات

للزيارات في السجون حصتها من الألم والمذلة... تبدأ بشرط أن يكون السجين معروفًا ومصرحًا بوجوده في السجون السورية، فيتقدم المعني بطلب إذن للمواجهة إلى المحكمة العسكرية... التي قد تحولهم إلى إدارة السجون في منطقة القابون القريبة من الشام.

بعد حصول الأهل على تصريح لزيارة ذويهم المعتقلين ينتقلون إلى سجن صيدنايا العسكري أو إلى سجن المزة أو إلى أحد الفروع العسكرية التي نادرًا ما يندرج معتقل تدمر في إطارها.

في إدارة السجون مساعد أول ملقب بأبي محمد يستغل

الأهالي أبشع أنواع الاستغلال. فهو يجبرهم على التصريح عما يحملون من مأكولات وملابس ويمنعها من الوصول إلى أصحاب الحق فيها من المساجين إلا إذا دفع الأهل خمسمئة ليرة سورية... والمشهد نفسه يتكرر عند ولوج الأغراض إلى المعتقل حيث السجين المقصود، ولا يحصل هذا الأخير إلا على جزء يسير من الأغراض، أما ما يختفي منها فيباع إلى السجناء بأسعار باهظة. أعني أن الرقيب أو المسؤول المباشر يرسل شرطيًّا إلى المهاجع ويأمرهم بأن يشتروا المأكولات والملابس التي صادرها بل سرقها من الأمانات. ومن بين آمري سجن المزة شخص معروف جدًا وموصوف ببطشه وحزمه ونهمه وسرقة المساجين يدعى أبو رامز، معروف بحقده على اللبنانيين والفلسطينيين. وكان كلما أراد أن يسرق شيئًا يقول:

ـ ولاه! هذه أموال ياسر عرفات الخر... أو أموال صدام حسين الكلـ... أو آتية من الكـ... سعد حداد قائد جيش لبنان الجنوبي، مبررًا مصادرتها. هذه فلوسهم لنا لذلك، نحن نصادرها ومو لازم إنتو تقتلونا في بيروت ويرسلولكم فلوس... وإنتو يا شرا... تاكلوا سمك ودجاج، وروستو، ونحنا بناكل خرا...

وليتخلّص السجين من عقابٍ ما، عليه أن يدفع ٥٠٠ ليرة سورية، وقد يسمح أبو رامز لأحد المساجين بزيارة خاصة مقابل ١٠٠٠ ليرة. أما إذا أراد أحدهم أن يقبل زوجته أو خطيبته قبلة طويلة فيرتفع السعر إلى ٢٠٠٠ ليرة أو أكثر...

أما في صيدنايا فالأمر مختلف، إذ إن تشدّد الإدارة منع الأهل من الاختلاء بأقربائهم المسجونين... إلا مقابل ٥٠٠ ليرة سورية للزيارة الخاصة تدفع بواسطة رئيس الجناح الذي بدوره يسلمها إلى المساعد المسؤول في السجن ويدعى وائل أو حكمت أو محمد. وكما الأمر في المزة كذلك في صيدنايا... ولكن أفضل، والسرقة وسلب المساجين أقل، ولا يصل إلى السجين إلا القليل القليل من الأغراض المرسلة إليه.

وأصعب الزيارات على الإطلاق كانت في تدمر: فالأهل يرتعبون من الشرطة العسكرية التي تتشدّد بالأوامر لتمنع الزائرين من السؤال عن معارفهم. وإذا حصل ولفظ أيّ حرف غلط تقطع المقابلة فورًا وتمنع الزيارة.

في الوقت عينه تعطى للسجين أوامر مشددة بعدم الإفصاح أو الإجابة عن أسئلة الأهل... فيبقى عليه أن يقول: «الأكل كثير، الطبابة جيدة، الرقباء ممتازون، ونحن هنا في أحسن السجون حيث يسمحون لنا بلعب كرة القدم والكرة الطائرة. نشتري حاجياتنا من هنا، فرجاء في المرة المقبلة لا ترسلوا لنا شيئًا ولا تتكبدوا عناء حمل الأغراض لأن الإدارة الرشيدة تؤمن كل ما نريد وكرمها زائد علينا...». أما إذا سئلنا عن منعنا من تربية الشوارب والشعر فعلينا أن نجيب بأن ذلك أفضل للنظافة التامة، وليحصل الجسم وجلدة الرأس خصوصًا على الفيتامين «هـ»، فتقوى بصلة الشعر... وإن سألونا عن النحافة نقُل إننا نمارس الرياضة بانتظام، ونعدو لدقائق طويلة لأن هذا صحّي وأفضل لنا... أما عن الورم أو الازرقاق على العينين أو في أيّ مكان

من جسدنا فمرده إلى فريق البوكس، أو الجودو والكاراتيه... أو دبشنة لعبنا معًا.

أنا متأكد جدًا أن معظم الأهالي لا يصدقون ما يقوله لهم أولادهم ومع ذلك يتكبدون العناء وبعد المسافة، كل هذا ليروا أولادهم دقائق معدودات.

عندما تصل إلى السجين «نقلة» من الأغراض يوقّع على لائحة استلام تعدد كل ما أرسله أهله... رغم أن ما يعطى له يشكل أقل من ٢٠ في المئة من مجمل الحاجيات، إذ تُسرق هذه الأخيرة. ونحن لشدة الهلع والرعب لا نجرؤ على الكلام أو الاعتراض. وإذا سُرق أكثر من ذلك نُجلد ونُضرب كي لا نفتح أفواهنا... فهل يشكو الحمل عذابه للذئب والشكوى لغير الله مذلة؟!

عند عودة السجين من الزيارة يتحلّق الجميع حوله وتنهال عليه الأسئلة من كل حدب وصوب تهنئه بالسلامة، وكأنه كان يحارب على جبهة الجولان مثلًا أو في جنوب لبنان يجابه فيلقًا من الصهاينة في معارك ضارية:

«كيف كان الذهاب والإياب؟ هل ضربوك؟ ركلوك؟ من جاء لزيارتك؟ ما آخر المستجدات؟ شو قالوا...؟».

ويروح السجين يروي لمدّة ساعات وساعات أخبار زيارة لم تتعدّ الدقائق الخمس عشرة في أحسن الأحوال، وتبدأ التحليلات السياسية والإخبارية، مثلًا: قال النائب الفلاني لأهل السجين كذا «إن شاء الله خير»، أو قال الوزير أو رئيس مجلس الوزراء كذا... فنبني أحلامًا

وأحلامًا على كلام نواب وسياسيين كذابين لا يجيدون سوى التدجيل والعبث بآمال الناس وكسرات قلوبهم، فيبيعون أهلنا كلامًا مقابل الأصوات الانتخابية.

اكتشفت بعدما خرجت من السجن أن كل ما قالوه عارٍ من الصحة، تحليلنا في واد، والحقيقة في آخر، على بعد جبال وأنهر ووديان... فأشكر الله للمرة الألف بعد الألوف على خروجي حيًّا لأشهد للحقّ.

حقًّا، تجد في السجن مختلف الأنواع والأشكال الفكرية، منها الخيّر ومنها الشرّير. فالبعض يخطط لبناء مستقبل شريف والبعض الآخر يختلق نظريات الازدهار بوسائل شتى... فهناك المفكر الذي يرسم معالم التغيير في سياسات بلده الداخلية والخارجية، والعسكري الذي يحلم بالمناصب العالية لا لشيء إلاّ ليوقف الفساد في المؤسسة العسكرية ويزيل المحسوبيات والتعدّيات التي لا يخجل بعض الضباط والعسكريين من المجاهرة بها. ترى كذلك الطبيب الذي سُجن لأنه لم يُجد تسويق نفسه تجاريًّا، فلم يبق له سوى القسم بشرف المهنة بعد أن سقط جريحًا في المعركة... والمحامي الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن الحق وصون الحريات فتصادم مع محامي السلطة حامي النظام والفساد، ومعه الصحافي ذو القلم الحر والعقل النيّر الذي رفض أن يبيع ضميره ويجيّر قلمه لمصلحة الفسق...

إنه السجن الذي يواجه التغيير بالقمع، والقلم بالممحاة... ولكنهم

أيضًا مساجين الرأي الذي لا يُرتهن ولا يُباع، شاهدون للحق حتى الشهادة، وصرخة الإنسان للحرية والديموقراطية، والحق الإنساني بالاختلاف الراقي والحضاري. ولو أن الحضارة توقفت عند البعض على حدود السياط والجلد والتعذيب.

سُجنوا لأنهم قاتلوا دفاعًا عن شرف وطنهم، يوم جيّرته السلطة إلى غيرهم ممن لا حقّ لهم فيه. فغيّبتهم «بشحطة قلم». ونحن المساجين الأحرار يدور بنا الفكر ويأخذنا إلى حيث لم يرمنا في عتمة السجون وبرودة الظلم، فنرسم المستقبل وحيدين، معلَّقين بين الحياة والموت... ولا يملك الحقيقة إلا من شارف على مواجهة الله والوطن...

موت الرزّ

بالعودة إلى سنة الموت الأحمر في الـ١٩٨٩، كنت لا أزال في الباحة السادسة في مهجع اسمه «جديد سادس» عندما بدأ زميل لنا من آل الرز بفقدان الوزن في شكل مخيف، علمًا أن الرز معروف كونه شقيق أحد الزعماء الطرابلسيين. عندما اشتد عليه المرض بتنا نخرجه للتعداد مسنودًا بين سجينين، محني الرأس.

ولسوء حظه تحرّك مرة خلال التفقد فأمره الرقيب بأن يرفع رأسه ويغمض عينيه. وعندما أجابه الرزّ بأنه مريض أجبره الرقيب على الخروج من الصف فسقط أرضًا.

يا شرمـ... عم تمثّل ولاه؟! شو مفكرني حمار؟!

رفسه على ظهره وانهال عليه بالكرباج.

صاح رئيس المهجع:

ـ سيدي هذا مريض فعلًا...

ـ أين المسؤول الصحي؟

ـ ...

ـ أدخله إلى المهجع ولا تخرجه إلى الصف.

بقي زميلنا يبصق دمًا ليومين ثم فارق الحياة.

سمعنا الكثير الكثير من قصص الموت المروّعة في تدمر. منها ما لا يُصدق، لما يتركه من أثر في النفوس، ومنها ما عايشناه وقد ألفنا الغيبوبة لقسوة الأيام...

ويخبر أحد الإخوان المسلمين أنه في ربيع الـ١٩٨٥ خرج السجناء للتفقد. وقف إلى جانب الراوي أحد المعتقلين في العقد الخامس من العمر، كان ضعيفًا يرتجف من الخوف. أخذه الرقيب من يده ورفسه على رقبته فوقع أرضًا. وعندما لم يعد يتمكن من الوقوف قفز الرقيب على صدره وهو يحتذي الجزمة العسكرية. فسمع تكسير عظام الصدر ترافقه صرخة ألم دوّت في أرجاء السجن. ثم قفز مرة أخرى على بطنه فخرج الهواء من فم السجين وبقي على الأرض دون حراك. عندما دخل الجميع المهجع بعد التعداد كان زميلنا قد فارق الحياة.

وكالعادة أتى مدير السجن:

ـ ماذا جرى له؟

ـ وقع في الحمام ومات.

ـ حدا ضربه؟

ـ لا سيدنا.

بعد يومين أتى الرقيب للتفتيش فوجد مع أحد المساجين مسمارًا كان قد وجده في الخارج، فضربه ضربًا مبرحًا وقال له:

ـ اعتزّ بنفسك، (أي أن يقف مرفوع الرأس)، فضربه ضربة جودو على زلعومه كسرت العنق وقضى السجين في الحال.

طبعًا، كُتب في التقرير أنه مات نتيجة وقوعه في الحمام. وكل الذين استشهدوا في تدمر نتيجة التعذيب، وقلّة الدواء أو بمرض السل «وقعوا في الحمّام» بالمفهوم السوري.

سلوا مدير السجن الأعلى، غازي الجهني، أو نائبه، محمد نعمة،... علّهما يقرّان بما ارتكبا.

القسم لولاية جديدة للرئيس حافظ الأسد

في نهاية عام ١٩٩١، ومع قرب نهاية ولاية الرئيس حافظ الأسد، بايعه الحزب والشعب المزعوم والمرغم على ذلك. وتقدّم إلى انتخابات أو ولاية جديدة. عرفنا ذلك من خطباء الجمعة في المساجد القريبة من سجن تدمر «اللعين». ومن هيصة الشرطة. فابتدع مدير سجن تدمر وسيلة جديدة كي يقوّي ويحصّن مركزه بأن أمر سجناء الرأي السياسي في سجن تدمر بأن يكتبوا تأييدًا ومبايعة للرئيس الأسد بالدم... أو لنقل بدمنا الناشف المجفف. وفعلنا ذلك مرغمين. أعطونا ورقًا أبيض وبعض الدبابيس لتنفيذ المهمة الدموية، وشرح لنا شرطي بأن هذا العمل وتوقيع العريضة بالدم سيساعدنا على

إخلاء سبيلنا. قال: سأعود بعد ثلاث ساعات لأجمع التواقيع. وغادر الغرفة. لم نتكلم لمدة ساعة أو أكثر. كيف نكتب بالدم وبالروح لهذا الرجل الذي سجننا وأذلّنا وأهاننا وحقّرنا وضربنا وشتمنا... كان هذا انتهاكًا صارخًا لحقوق الإنسان. لم يتركوا وسيلة ممكنة إلا وجرّبوها بنا. ماذا سنكتب له؟ شكرًا؟! عزاء أم شتائم؟ وفوق ذلك بدمائنا. هذا غير معقول. ولكن في النهاية قرّرنا أن نكتب وإلا تُشطب أسماؤنا من الجنة وتُرسل إلى جهنم. أي بصريح العبارة من الضرب والعقاب المستمرّ إلى الموت. اجتمعنا نحن المتعلمين لصياغة مسودة صغيرة قدر الإمكان كي لا يزهق دم نقي طاهر في سبيل قضية نكرة.

بدأنا بالتداول: سيادة المناضل الباسل السيد الرئيس العربي الأول حافظ الأسد حفظك الله درعًا منيعًا للعروبة. قال أحدهم: ولووووو. هيدي بدها ليتر دم. قصّروها. يا أخي اختصروا شوي. فحذفنا الباسل. قال: بعد. حذفنا الرئيس العربي الأول، وأصبحت:

«سيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد حفظك الله درعًا وسدًّا منيعًا للعروبة. نبايعك رئيسًا أبديًّا لسورية الأبية التي وبفضلك أصبحت حصنًا منيعًا للقوة والعنفوان والرجولة... وبفطنتك وبدعمك المستمر لبلدنا لبنان عاد سيدًا حرًّا مستقلاًّ. نعاهدك على المضي قدمًا في برنامجك السياسي الأبي. أدامك الله يا سيادة الرئيس المبجل».

وهذه هي الصيغة التي قدمناها إلى حضرة مدير السجن العسكري في تدمر، وكتبها طبعًا كل سجين بدمه وذيل توقيعه عليها... لم تصل إلى المدير، مُزّقت أمامنا. بل قال الرقيب: يا عرصات صدّقتوا إنّو

الرئيس عايز توقيعكن ليجدد ولاية جديدة كان بدنا ننشّف دمكم أكثر ما هو ناشف.

جدّد للرئيس مرة ثانية ونحن نكتب بدمائنا وذهبت كل التواقيع والرسائل في مهبّ الريح... و «عيشي يا عروبة»!

الموقوف اللبناني علي أبو دهن

طلب استرحام

«السجن العسكري الأول صيدنايا،
حضرة العقيد مدير السجن العسكري الأول الموقر،
المآل (الموضوع): طلب السماح لعائلتي بزيارتي.
الموقوف اللبناني: علي أبو دهن، ط ٣، جناح أ، يمين
سيدي العقيد،

منذ توقيفي بتاريخ ١٩٨٧/١٢/٢٨ ولغاية اليوم تاريخ ١٩٩٢/١٢/١ لم يُسمح لعائلتي بزيارتي، علمًا أنني مشتاق لرؤيتها ولمعرفة مصير أطفالي وزوجتي وكيف تسير أمورهم، كما أريد إعطاء زوجتي توكيلًا عامًا تستطيع بواسطته سحب أموال من البنك وبيع ما تريد لإعالة العائلة لأنها أصبحت مولجة بكل كبيرة وصغيرة. وفوق ذلك أعلمكم بأنني أريد مساعدتهم لأنني مريض وأعاني من الروماتيزم وديسك في ظهري وقرحة معوية وأحتاج إلى الدواء والفلوس.

سيدي، أناشدكم بحياة الرئيس حافظ الأسد المفدى أن تساعدوني، علمًا أنني حسن السيرة والسلوك.

وفي الختام لسورية العظيمة كل الهيبة والعزة.

الموقوف اللبناني علي أبو دهن».

التحويل إلى صيدنايا

في تدمر كنّا مغيّبين عن العالم الخارجي. أمّا في صيدنايا فالأمور كما سترى اختلفت تمامًا.

في صباح أحد أيام آب من عام ١٩٩٢ فُتح باب السجن، وكانت الساعة السابعة... فوجئنا، إذ لم يكن ذلك ليحدث إلا في حالات ثلاث: محاكم، أو إعدام أو إفراج.

ضمّ مهجعنا في ذلك الوقت ٦٥ معتقلًا، بينهم ستّة لبنانيين. أما الباقون فإما لبنانيون من أصل سوري... أو سوريون بتهم مختلفة.

وصاح مساعد الشرطة المناوب:

ـ الجميع يسمع! ويلّي بيطلع إسمو، يذكر اسم أمه ومكان ولادته فورًا...

بدأت الأسماء تتوالى: مصطفى، يحيى، ريمون، محمد، نزار بالع الفأرة...توقفت أذناي عن السمع، لم أعد أعي ما يقوله الرقيب، فبدأ قلبي يدقّ بسرعة هائلة: الأسماء كلّها لبنانية، ولم أسمع اسمي... أكاد أسقط أرضًا... هذا اسم... وآخر... ساعدني يا الله... انتشلني من هالضيقة... دخلك يا ربي شو عامل لهيدا العقاب؟ يا ربّ... ثم جاء اسمي، علييييييي. تنفست الصعداء وربما كان هذا أسرع طلب لي يستجاب من الله.

كنت في حينه رئيس مهجع، فتوجه إليّ المساعد قائلًا:

ـ زمطت يا عكرو... جهّز الجميع خلال عشر دقائق وأنهوا علاقتكم بالمهجع.

أحسسنا بأنها ساعة الحريّة، إذ لم يُضرب أحد وتكلم الرقيب بروية وهدوء... وهذه من سمات الحرّية...

اجتمعنا في المهجع الرقم ١٥ وإذا بي بحضرة ستّين سجينًا لبنانيًا لم أعرف منهم أحدًا غير واحد.

ففي تدمر كنا نجهل مكاننا نحن، فكيف إذا كان الأمر سجينًا في الغرفة المجاورة؟!

بدأنا بالتعاون تمهيدًا لكسر شوكة الخوف، فعلى الأقل نحن نغادر تدمر، وهو ليس بالأمر السيّئ على الإطلاق.

سمحنا لأنفسنا ببعض المخالفات الصغيرة، وقد وُجد بيننا من أذنوا لهم بتربية شعورهم وشواربهم. فرأيت وللمرة الأولى منذ أربع سنوات، شعرًا طبيعيًّا... فمرّرت بيدي فوقه لأتحسس ملمسه. وحذا بعض زملائي حذوي. علمنا منهم أنهم كانوا في الباحة الخامسة وكان يُسمح لهم بالعمل اليدوي وبيع منتوجاتهم ومقاسمتها مع إدارة السجن وأن وضعهم كان جيدًا جدًّا.

كان الجميع من لبنان، ومن قراه المتعددة: الجنوب، حاصبيا، النبطية، صور، بنت جبيل، البقاع، زحلة، عزة، جب جنين، بكفيا، الشمال، طرابلس، عكار، جبل لبنان، عاليه، بيصور، إغميد، بيروت، سنّ الفيل، المصيطبة، النويري، برج حمود، وغيرها....

بالنسبة إلينا، عنى هذا التمثيل الشامل للمحافظات والأديان اللبنانية أن على كل زعيم، مهما علا شأنه واختلفت انتماءاته، أن يطلب الرضا ويقدّم الهدايا والفلوس إلى الضباط والمسؤولين السوريين...

ثم أدخلوا الطعام، فأكل البعض لكثرة الفرح فيما اعتكف البعض الآخر.في هذه الليلة الطويلة لم تنم الأكثرية، تحدثنا وضحكنا بخوف ولكن تجرّأنا للمرة الأولى والفضل بذلك يعود إلى السجناء ذوي الشعور الطويلة لمعرفتهم ومصادقتهم الرقباء الملعونين.

مكثنا هذه الليلة قبل مغادرة تدمر في الصباح التالي بشاحنات عسكرية، تحبس أيدينا جنازير طاولت عشرين واحدًا، فأُدخلنا إلى الشاحنات تبعًا لطول الجنزير وبالعدد المذكور، معصوبي الأعين...

وفي الطريق سمح لنا الشرطي بعد أن أعطيناه ٢٠٠ ليرة سورية باستراق النظر والتأمل في الأراضي القاحلة الشاسعة وبدت بعض الأبنية والقرى التي نجهل أسماءها ومواقعها، قبل دخول الشام بقليل، صاح الشرطي بحياء ما:

ـ «كرمال الله»، التزموا أحسن ما روح أنا مكانكم... ردّوا الطمّيشات على أعينكم...

لم نتأكد من المحطّة الأخيرة، وقد أشارت تكهناتنا بأننا نُنقل إما إلى فرع التحقيق العسكري ومنه يخلى سبيلنا إلى لبنان، أو إلى سجن المزّة بهدف جمع اللبنانيين كلهم، أو علّهم يسوقوننا إلى السجن العسكري الأول في صيدنايا في بنائه الجديد... من يدري؟

حطّ بنا الترحال في باحة صيدنايا، حيث أنزلونا قافلة بالجنازير. صرخ صوت: انزلوا ولا...ه انتبهوا ما توقعوا... شيلوا الطمّيشة عن عيونكم هون فيكم تشوفوا الرقباء وتحكوا معهم؛ (لا أخفي عليكم أبدًا أنّنا كنا نرتجف من الخوف ملتصقين بعضنا ببعض كالأغنام لحظة تهاجمها الذئاب). ولكن صوت عسكري آخر بدّد كل هذه المخاوف حين قال: لا تخافوا هون غير تدمر! ما راح نضربكم بيكفي العذاب اللي مرّيتوا فيه... موزعًا الأوامر: على مهلك أنت بالأول على رفقاتك، أنت بالأخير وقاف: ابعدوا عن بعضكم ولك شو بكن، يلاّ شباب. بدأ عرق الخوف يجف رويدًا رويدًا... وانتظمت دقات قلبي وبردت أعصابي مع بدء الصعود على درج واسع ونظيف لامع. وصلنا إلى باحة شاسعة داخل السجن وبدأوا بفك الأغلال من أرجلنا، وأمرونا بأن نجلس القرفصاء أو على الأرض. هناك، سمح لنا الشرطي بنزع الطمّاشة التي تحجب عن أعيننا النور.

رأينا الشرطة العسكرية للمرة الأولى بعد طول انتظار، وكنا نتوق للتعرف إلى وجوه الرقباء في تدمر... الذين أذاقونا أمّ العذاب والضرب، والإهانة، الجسدية منها والنفسية. لم يتركوا لنا حُرمات إلا وانتهكوها، لم تسلم أمهاتنا ولا أخواتنا ولا بناتنا ولا زوجاتنا من الشتم والتعابير المسيئة اللاأخلاقية وهي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ عليهم.

لعنتهم جميعًا، هم وكل سلالاتهم، وبصقت بوجوههم في سرّي لشدّة ما رأينا من سوء على أيديهم وكذلك فعل كل من كان معي من معتقلين.

سلّمنا أغراضنا للتفتيش وأُخضعنا بدورنا لتفتيش دقيق جدًا حيث خلعنا ثيابنا، حتى الداخلية منها، وأُجبرنا على الركوع والقرفصاء ونحن عراة، إذ ربما كان أحدنا يهرّب مادة الحشيشة أو الكوكايين، مع العلم أننا منقولون فقط من سجن إلى آخر، وتحت حراسة مشدّدة مكبّلي الأيدي والأرجل لمجرد الإهانة الشخصية وتكسير الرأس. كنا نسمع التعليقات المسيئة من الشرطة مثل: ليك طيزو شو كبيرة، وقّف ولاه وديرها صوبي خلّيني إتصبّب عليها، والله أحلى من طيز مرتي الملعونة، محدثًا زميله... ضحك... وهذا ليك عضوه شو كبير مثل الحمار، آخر قال: ليبييك يا حمار، يعني العضو التناسلي الكبير، أمّك موحمة عليه أو نايـ.... حمار، ولاه لازم تتزوج حمارة أو بغلة تتحملك... ها ها ها... وهيداك حقير، وهيداك منيك، وهذا شرمو... وكل هذه الكلمات السيئة.

كانت هذه الكلمات العذبة تقع علينا أكثر وأقوى من السياط ولكن... ما باليد حيلة.

بعد انتهاء التفتيش قال الضابط المناوب: هنا، من يدخل السجن وجب علينا أن ندولبه، ونعمل له فلق. ولكن، نظرًا للظروف السيئة التي مررتم بها والعقوبة الطويلة غير المنتهية تكرّم وقرّر مدير السجن، محيي الدين محمد، أن يسامحكم ويعفيكم من الدخولية، أي عقوبة الجلد. ويقول لكم عليكم بالأدب واحترام قانون السجن والتقيد بالنظام العام، ويعدكم بألا يعاقب سوى المذنب. وعندما انتهى قال: ولو، هالمسامحة ما بتستاهل زقفة؟ شو أنتو بلا شرف بالحقيقة. صفّقنا وانتهى الكلام.

اقتادونا إلى الطبقة الثالثة المعروفة بـ «الباب الأسود»، حيث وُزّع لكل أسير أربع بطانيات فعازل ومخدّة.

ولعل أول ما لحظناه نظافة المهجع: بلاط يلمع، حمّام، ومطبخ صغير بلا حنفيات... إنها جنّة السجون بالمقارنة مع تدمر... فتنعّمنا للمرة الأولى منذ زمن بنوم هنيء من دون الطماشات، وصحونا على مزاجنا من دون إكراه من أحد...

أما الأكل فأتانا وفق الكميات المقررة أي ٤٨٠ غرامًا من الفطور للشخص الواحد ومن كل الأصناف كاللبنة والمربى، والبيض، والجبنة والزبدة... بمعدل صنف واحد يوميًّا. وبدأت مرحلة جديدة من حياتنا...

في اليوم الثالث من وصولنا إلى صيدنايا طلبنا جريدة فجاؤونا بصحيفة «البعث». لم نفهم شيئًا من السياسة الخارجية: جمهورية كازاخستان ورئيسها؟ دولة أرمينيا؟ ألمانيا دولة شرقية أو غربية... ليش فاليسّا؟ الرئيس اللبناني الهراوي في دمشق؟ الرئيس الحريري رئيسًا لمجلس الوزراء اللبناني؟ وآلاف الأخبار الغريبة عنا كليًّا... فصعقت إذ علمت أن الاتحاد السوفياتي تفكك فيما ألمانيا اتحدت... واغتيل تشاوتشيسكو وزوجته...

ثم اغتيل الرئيس اللبناني رينيه معوض بعد انتخابه بأيام. الرئيس العراقي صدّام حسين يغزو الكويت؟ أميركا ودول التحالف تحرر الكويت... سورية تشارك بالحرب جنبًا إلى جنب مع قوى الشرّ والإمبريالية، كما كان الرئيس الأسد يطلق عليها، ضدّ العراق أي ضد

بلد عربي وجار عزيز... وتأخذ الثمن بأن قدمت بيروت قربانًا لها. وعشرات الأخبار الجديدة... وقلت بصوت عالٍ:

ـ ولوه شو صار بها الغيبة خربت الدنيا؟!

فأجابني أحدهم ساخرًا:

ـ استغيبوك وعملوا هيك، لازم تحتج!

الباب الأسود

تصفّحت الجرائد والمجلات القديمة وعلمت أن الكثير من المتغيرات العالمية والمحلّية قد حدثت. وهزني ما حدث في لبنان من حرب الإلغاء بين الحكيم سمير جعجع والجنرال ميشال عون، ومقتل آلاف اللبنانيين مجددًا وتدمير مئات المنازل وتشريد الآلاف من منازلهم، هذا ما عدا إحراق السيارات وزيادة الفقير فقرًا... كله باسم الإلغاء. وعودة الاستخبارات السورية إلى بيروت الشرقية مع جيشها وحواجزها. ذهبت في غيبوبة قليلة أسترجع تاريخًا لم يمضِ عليه زمن كثير عندما اشتعلت الحرب اللبنانية ضد الوجود السوري في المنطقة الشرقية وكان لي الشرف الكبير بالاشتراك بها والقتال تحت قيادة الباش مارون خوري، والقائد بشير الجميل والرئيس كميل شمعون ونجله داني، وأبو أرز. كان هؤلاء القادة يحاربون جنبًا الى جنب من دون منّة أو تركيز على العدد، لذلك، نجحوا وحرروا المنطقة الشرقية من فلول الجيش السوري وارتاحت المنطقة منهم... وها هو الجنرال عون والحكيم

يتقاتلان قتال الإخوة، يدمّر بعضهما بعضًا ويلغي أحدهما الآخر. نُفي الجنرال إلى فرنسا. ولاحقًا سُجن الحكيم سمير جعجع لرفضه الشروط والإملاءات السورية. وربحت سورية ومن ساندها وخسرا هما.

غزو الكويت من قبل صدام. حرب ضد العراق، تحرير الكويت. واو، واو... سقطت أرضنا من دون عراك كما قيل لي بعد ١٠ أيام... ولشدة التركيز والتعصيب، وعدم قدرتي على استيعاب كل الحوادث، سقطت أرضًا لا أعي ما يدور حولي.

عيناي لا تغمضان، أسمع ولا أفهم. طنين في أذنيّ. بكاء مستمر. تنهيدات... صراخ! لا أكلم أحدًا. لا بسمة ولا ضحكة ولا حتى سلام. قالوا لي إن الدكتور محمد، السجين معنا، قد أمر بتقييد يديّ وإغماض عينيّ وتسكير أذنيّ بقطن، وأعطاني مهدّئات كثيرة. قالوا هكذا شفيت من هذه المصيبة. بعد ثلاثة أيام.

في اليوم العشرين جاءنا المسؤولون بأجهزة راديو، وبعدها بعشرة أيام بات لكل سجين منّا جهازه الخاص... ثم أخذونا من «الباب الأسود»، (الذي علمنا في ما بعد أنه للعقوبة أو لعزل المساجين بعضهم عن بعض)، واختلطنا بباقي المساجين.

تعرّفنا إلى قادة لبنانيين من البعث العراقي، وقد كانت القيادة كلها في السجن... كما تعرفنا إلى قياديين من الإخوان المسلمين، عمداء وعقداء من الجيش السوري، وبعض أعضاء حزب العمل الشيوعي والتقدمي الاشتراكي... وقد أفرج عن بعض المعتقلين

باستثناء أبو هيثم من الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني، والطبيب عبد العزيز الخير، وهو قيادي سابق في حزب العمل الشيوعي، وقد تعرّفنا إلى المئات منهم في تدمر.

والملفت أن الذين خرجوا بعد ذلك وقّعوا كتابًا مع السلطة يتعهدون فيه بالتوقف عن العمل الحزبي، والعمل لمصلحة السلطات السورية بدلًا منه...

إذًا، فالسجن سياسي محض. وربما لهذه الأسباب سُمح لنا باستعمال السكاكين والملاعق المعدنية والكؤوس الزجاجية، كما أذنوا لنا باقتناء غاز صغير للطبخ. فصرنا نشتري الخضار والفاكهة والحمّص والفول لنطبخها، كل على ذوقه...

أما الوجبات التي تقدمها لنا الدولة فتذهب إلى الذين منعت عنهم الزيارات... ولا يملكون المال لشراء حاجياتهم، ونسمّيهم المقطوعين.

... ناس بسمنة وناس بزيت، إذ تقع على هؤلاء «المقطوعين» مسؤوليات العمل اليومي كالغسل والجلي والتنظيف... مقابل أن يأكلوا مع الذين يُسمح لهم بالزيارات، وتُسمى بلغة السجن «السخرة».

كذلك أصبح الدواء مباحًا، نشتريه بفواتير رسمية مثل بقية الأغراض...

كنت ورفيق لي نتمشى في الممر الطويل ونتحدث بأمور شتى، أذكر ذلك التاريخ جيدًا كان قبيل نهاية عام ١٩٩٢، وتحديدًا

في ١٩٩٢/١٢/٨. سألني الرقيب إذا كان عندنا أحد باسم علي أبو دهن (هو طبعًا لا يعرفني)... ذهلت! وعندما أجاب رفيقي بدلًا مني بالإيجاب، طلب إليه أن يبلغني بتحضير نفسي لزيارة.

الزيارات المفاجئة

لم تسعني الفرحة... ونسيت كيف أضع زرّ القميص في عروته، فساعدني زملائي بترتيب هندامي وحلق ذقني. ثم عادوا فأعاروني ثيابًا نظيفة تليق بمواجهة أهلي.

زملائي الذين هم من منطقة حاصبيا وجوارها أتوا جميعًا إليّ يوصونني بأن أقول لأهلي كي يذهبوا إلى أهليهم: حسين شقرا من كفرمشكي، واحد من قرية عين عطا رشيد ميرهم، ثانٍ من شبعا موسى صعب، وغادر، الهبارية، بنت جبيل علي بيضون، زحلة جورج سلّوم... أما من لهم مونة عليّ فكانت توصيتهم بعيدة جدًا عن حاصبيا: من عرمون رجا قبلان، ومن بيروت مصطفى شمس الدين، ومن سن الفيل عادل عاجوري الذي توفي في السجن في ما بعد، ومن أقصى الجنوب، بلدة شقرا، حسين شقرا وعلي برّي... وغيرهم كثر والكل اتكل عليّ وحلّفني بالله ألا أنسى.

وعندما لبست كامل ثيابي، تبرع أحدهم برش كولونيا على وجهي وثيابي. أقسم بالله، كانت المرّة الأولى بعد خمس سنوات تصل الكولونيا إلى جسمي وأحس برائحتها الزكية.

صرخ الرقيب: وين الزيارة؟

ـ يلا جايي. هيدي أول زيارة له، توصّى فيه، وما عليك، الرقيب عندي، قال رئيس الجناح.

ذهبت برفقة الرقيب وكانت المرة الأولى التي أستقبل فيها زوارًا، فدلّني إلى الطريق وأخذني إلى غرفة عالية تحيط بها جدران شاهقة من الشبك، شبهته إلى حد بعيد بحلبات المصارعة حيث الرابح يبقى في الخارج فيما يدخل الخاسر... أعلمني الرقيب بأن الكلام بالسياسة وإيصال الرسائل وقول أسماء السجناء ومن معك كله ممنوع، إذا خالفت تقطع الزيارة فورًا. مفهوم؟!

حضرت أمامي سيدة متشحة بالسواد، عرفت فورًا أنها زوجتي رغم أنها فقدت الكثير من وزنها... مثلي تمامًا. أوَلم يكن العذاب مشتركًا؟! فقالت فورًا:

ـ خبرني. يا دلّي ليش هيك صاير فيك؟! دخيلك بروم ظهرك لشوف... يا الله... ليش هيك؟! شو صار فيك؟!... ليش ضعيف هيك؟! فكرّت على وجنتيها الدموع ولم تنبس ببنت شفة إلا بعد قليل... سألتها: كيف الأولاد؟ خبريني عنهم بالتفصيل...

ـ الحمد لله أنا بخير متل ما شايفني عملت ريجيم لأضعف وصير سمباتيك... الأسود بضعّف مش هيك؟

ضحكت... أما هي فابتسمت... وكأنها أحست بسؤالي مسبقًا قالت:

ـ أمي عطتك عمرا...

ـ مين بعد؟

ـ خالك، وعمك...

بكت وتوقفت عن الكلام، فبكيت. لم أجرؤ على إتمام الأسئلة خوفًا من أن يأتيني الجواب المرّ، فتنهدت وقالت باكية:

ـ أمك...

فشهقت:

ـ شو صارلها؟

ـ أمك بتسلّم عليك والمشوار الجاي رح تجي معنا إنشالله وإخوتك وخيّاتك كلهم بخير... والأولاد الحمد لله شاطرين بالمدرسة... جوّزت البنت والصبي ...

ـ الحمد لله...

ـ شو بدك جبلك معي؟

ـ كل شيء كنت بحبه من زمان: بدي كبة بالصينية، كبة قراص، فطاير، قهوة، نسكافيه، تفاح، رمان، بزورات، فراريج مشوية، روستو، شفرات حلاقة، كلسات، حذاء رياضي، حذاء للمشي، شحاطة... ليكي جيبي كل السوبر ماركت.

ضحكت ... وضحك العسكري الفاصل بيننا وقال:

هلق زوجتك بتفكر إنو مموتينك من الجوع هون. قال الشرطي: خالتي، شو بدك فيه؟ عم يمزح مو هيك يا علي؟

أجبت: نعم، ولكن زوجتي كانت قد استلمت الرسالة وفهمت عليّ.

وكونها زوجتي أسقطت الرسميات، واعترفت لها بالحاجة إلى كل شيء وبصورة خاصة المال... فتذكرت:

ـ كيف الأحوال معكن... إن شاء الله ماشية؟

ـ بألف خير من الله، ما بينقصنا إلا وجودك معنا... قديش محكوم؟

ـ ١٥ سنة...

ـ بسيطة، بعد ١٠ سنين يعني...

ـ الله بيعرف...

قرع الجرس معلنًا انتهاء الزيارة.

فتركت زوجتي بعض المال... وغادرت.

لم أنم طوال الليل وأنا أفكر بها، وبأولادي، وبأمي وإخوتي وأخواتي، وبكل ما قالته... فبكيت على أمها، وأبيها، وخالي قائلًا في نفسي: «نجّني ربِّ من هذا المأزق، وأنت سميع مجيب. وأصبحت من المزارين، فنجّني يا ربّ...».

أتت الزيارة الثانية وكانت الأهم فطلبت زيارة خاصة، دفعت فيها رشوة بقيمة خمسمئة ليرة سورية[١].

وكانت قمة الزيارات، إذ جاءت والدتي فركعت على قدميها وقبلتهما... وكم كنت أشتهي ذلك؟! أما أولادي الذين كبروا خمس سنوات فعرفتهم بحسب الطول والحجم، وضممتهم إلى صدري... قبّلوني كأنني لم أغب. ولم يحسوا بوحشتي... ويعود ذلك إلى تربية والدتهم الصالحة، فسألوني:

ـ أيمتى بابا بدك تطلع؟

---

(١) ما يعادل، آنذاك، مائة دولار أميركي.

أجابت والدتهم: قريبًا إنشاء الله...

كان معهم أخ واحد وأخت في الزيارة التي وجدتها «غير شكل» كما يقال...

لم أنم لياليَ كثيرة، إذ كنت أصحو من نومي حالمًا برؤيتهم...

كم سمعت أصوات أولادي ينادونني «بابا»... أو يقبّلونني... وصوت أمي تدعو: «إن شاء الله شوفك برا قبل ما موت»... وأخي وأختي وزوجتي...

تكررت الزيارات إحدى عشرة مرة وكانت الأخيرة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٢. فدخلت في دوامة من الانزعاج تبعتها حالات قصوى من اليأس والقنوط...

مرّت سنة لم يأتني خلالها أحد، وحاولت بشتى الطرق والوسائل أن أتبين الأسباب... دون جدوى.

فبعد أن اعتدت الأكل المنزلي ووفرة المصروف، عدت فجأة إلى أكل البرغل والمرقة. وإلى العمل بتصرّف المُزارين أي الجلي وغسيل ثيابهم وتمسيح الأرض.

ليأسي حاولت الانتحار فجرعت خمسًا وستين حبة من الدواء المشكّل، إلا أنهم انتشلوني من الموت بسرعة...

وحاولت الإضراب عن الطعام فأطعموني رغمًا عني... وهددوني بالترحيل إلى تدمر إذا ما حاولت ثانية...

... وكان غضبي عظيمًا عندما علمت من أحد الرقباء بأن سجينًا

قدّم بي تقريرًا بأن كثرة الفلوس ووفرتها معي تصلني بواسطة زوجتي من العملاء اليهود، لذلك، أوقفوا الزيارة.

حينها انعزلت عن الجميع بعد أن اتخذت لنفسي زاوية جلست فيها غارقًا في الصمت، لا أقبل زيارة أحد أو حتى الكلام مع باقي المساجين...

وفي عام ١٩٩٦ طلبت نقلي إلى جناح الإخوان المسلمين فعشت معهم أحسن عيشة. ولشدة عذابهم والظلم الذي مروا به أنسوني مصائبي والمثل يقول: «اللي بيشوف مصيبة غيرو بتهون عليه مصيبته». وهكذا حصل معي. مرّ عليّ الوقت بطيئًا، ولكن من دون إزعاج من أحد. بدأت تعليم اللغة الإنكليزية التي أعرف وزاد عدد طلابي من الإخوان واستمعت إلى آلاف القصص المروّعة التي حدثت معهم ومع أهاليهم ولو أسمح لنفسي بنشرها لكانت حتمًا ستفوق الخيال. وربما قد سردت لكم قلّةً منها!

كان لنا في ذلك الجناح أجهزة راديو بدائية، بالكاد تسمعنا بعض الأخبار... تحايلنا عليها ببعض الحنكة، فصنعنا من سيف الجلي خيطانًا، وقد لففناه وهذبناه حتى بلغ طول الواحد منها أمتارًا عدة حولناها إلى هوائي... ووصلناه بالجهاز. فالتقطنا البث، وكان همّي الأول التركيز على الأخبار التي تذيعها وسائل الإعلام اللبنانية المسموعة، مثل إذاعتي «لبنان الحر» و«صوت لبنان». كنت أستمتع بدفء صوت الصحافية المذيعة وردة وهي تحاور بذكاء تام ضيوفها من صوت لبنان، وأسمع يوميًا برنامج شكاوى الناس ومقدمته ربيكا

أبي ناضر. بت أعرف مدى تفشّي الفساد وانتشاره منهما، وأستمع كل ليلة خميس إلى برنامج كلام الناس مع الغني عن التعريف، الأستاذ مارسيل غانم، وإلى برامج أخرى إلى أن أتت تلك اللحظة الجميلة على أسماعنا في ذلك اليوم من أيام أيلول عام ٢٠٠٠ بيان لمجلس المطارنة الموارنة[١] طالب فيه المجتمعون، وعلى رأسهم البطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير، بالكشف عن مصير اللبنانيين المعتقلين في السجون السورية... وإعادتهم إلى أهاليهم بأسرع وقت ممكن، ومحاكمتهم أمام المحاكم اللبنانية إذا كانوا يستحقّونها.

بدأ الإخوان المسلمون، (وقد بلغ عددهم أكثر من ٩٠)، بالضرب على جدران السجن ليلفتوا انتباهنا إلى الخبر.

في تلك الليلة المباركة، نمت مطمئنًّا إلى أن أحدهم يعرف بمصيري الأسود، ويأبه كيف أموت وكيف أحيا. فشكرت المطارنة من قلبي، وأغمضت عينيّ على أمل بالحريّة.

للمرة الأولى يعلو فيها صوت الحق على الباطل في مجلس النواب اللبناني، وبوجود الاحتلال السوري عندما طلب الزعيم اللبناني وليد جنبلاط الكلام قائلًا: إجاني ورقة من أهالي المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية المعتصمين في الخارج، (خارج مقر المجلس النيابي)، يسألوننا عن مصير أولادهم، وطالبونا بأن نعمل لهم شيئًا أو نساعد ونعمل لإطلاق سبيلهم، وهذه من مسؤوليتنا الوطنيّة...

---

(١) ٢٠ أيلول ٢٠٠٠.

(أحسست بقلبي يتوقف فجأة عن الخفقان... وبدأ الأمل يكبر. قلت محدثًا نفسي: قرب الفرج، إذا كانت المطالبة من المجلس النيابي ومن الزعيم وليد جنبلاط، والبطريرك الماروني مار نصرالله بطرس صفير. إذًا، صارت قريبة الطلعة، المعادلة موجودة: موت الرئيس حافظ الأسد، تعيين ابنه مكانه، يعني الشعب عرف بوجودنا داخل السجن، وأكثر. وصل الصوت للعالم. إذاعات «مونتي كارلو» و«بي بي سي» و«صوت أميركا» وكل المرئيات ستطلق العنان بالطلب لإخلاء السبيل لكل الموقوفين اللبنانيين من داخل السجون السورية... يا رب، اعفُ عنّا، وفرّح قلوب أمهاتنا وأبنائنا ومحبينا وأعدنا إلى بلدنا سالمين... استفقت من حلمي على أصوات النشاز).

قاطعوه عن الكلام فورًا... حزنت من الرد القاسي الذي جاء من نائبين، أحدهما ناصر قنديل والثاني عاصم قانصوه... فنحن في نهاية الأمر لا نتعدى كوننا مساجين رأي، معتقلين للاختلاف السياسي لا غير... وهم يعرفون جميعًا أننا لم نقترف جرائم في بلادنا، لم نسرق أو نغتصب أو نقتل ونمشِ بجنازة القتيل. إننا بامتياز سجناء سياسيون، ربما كنا أقوى منهم عندما قاتلنا الاحتلال. لذلك سُجنّا، ويعلمون أيضًا لماذا اعتُقلنا.

لم نسرق، لم نقتل، كما فعلوا هم والبعض منهم. فوصلوا إلى مراكزهم على أكتافنا، ربما، ما كان ذلك ليحصل لو أننا أحرار.

ولا يخفى على أحد أن العامل الرئيس الذي ساعد على إطلاقنا مع

ما تقدم سابقًا، كان وفاة الرئيس السوري حافظ الأسد، وانتقال الحكم إلى ابنه بشار الذي أحب أن يبدأ حكمه بطريقة سليمة ونظيفة وهو الأكثر انفتاحًا وجرأة.

العودة

مكثت مع الإخوان المسلمين حتى تلك اللحظة الحلوة من حياتي.

وفي أحد الأيام بينما كنت أتمشى في باحة المهجع مع زميل لي، وصلنا إلى الباب الرئيسي، وإذا بالمساعد المناوب يثبت نظره عليّ:

ـ أبو دهن قرّب!

فامتثلت...

ـ بدك تفلّ، جهّز تيابك.

ـ شو؟ الله يخليك، الله يوفقك، شو هالحكي؟ مش معقول! ما عاد فيي إتحمّل، امزح بغير هالموضوع.

ـ عم قلّك مظبوط جهّز تيابك ولاه...

ـما بصدق سيدي أنت بتحب تمزح!

ـ والله... ليييييييييك العكروت ما بصدقني!

لم أنتبه إلى أنني كنت أكلم المسؤول المناوب، ولربما على وقع الصدمة قلت: فرجيني البرهان والحلوينة إلك!

ـ ثم مد يده إلى جيبه وتناول ورقة:

كانت المرة الأولى منذ ١٣ سنة أقرأ فيها اسمي مطبوعًا على ورقة... «علي علي أبو دهن: إخلاء سبيل».

وبدأت أصدق ما قاله المعاون. لكن... تجمّدت واقفًا كالعمود، لا أتحرّك يمينًا ولا شمالاً...

لم أعرف فعلًا ما أفعل، أو بما أشعر، لكأن عقلي توقف فجأة من الدهشة، أو الصدمة أو الفرح... وتوجه المعاون إلى عدد من المساجين ممن كانوا بقربي وقال: ضبّولو تيابو.

وركض زملائي وبدأوا بتجهيز عدتي للرحيل، ولم يكن لديّ الكثير... قررت إعطاء ما لي من قمصان وقطنيات إلى المساجين، فرفضوا بحجة أن لا أحد يعلم ما ينتظرني في سجون بيروت، لأن الدولـة اللبنانية ليست هي صاحبة القـرار، وقـد أُسجن هناك أيضًا.

كان هذا في الثامن من كانون الأول من عام ٢٠٠٠، الساعة الخامسة عصرًا تقريبًا.

وأخذ زملائي الذين كانوا يتلقون زيارات من أهاليهم، يجمعون المال: ٥٠٠ ليرة سورية من هنا، ٣٠٠ من هناك، حتى أصبح بحوزتي ٧٠٠٠ ليرة من أصدقاء جمعتني بهم المصيبة في السجون السورية... وربما لا تجمعنا الأيام ثانية.

قلت يا شباب الفلوس كثيرة وأنا لست في حاجة إليها... أنتم في حاجة أكثر.

ـ بلكي حولوك على مطرح ثاني ولك ما إلن أمان وإذا إلى لبنان الله يسامحك.

لم أعد أعرف ماذا أفعل أو كيف أتصرف: فجأة بدأ الكابوس

يتهاوى أمام حقيقة انتظرتها بحرقة طوال ١٣ سنة لا أكاد أذكر كيف بدأت، ولست متأكدًا كيف تنتهي. أما الحقيقة الثابتة الوحيدة أمامي في تلك اللحظة الأبدية، فكانت نظراتي التي طالت إلى المال بين يديّ، وإلى الآمال المعلّقة لأصحابها، على حرّيتي المزعومة، حريّة كلّفت غاليًا وباتت محمّلة بالمسؤولية.

ـ أبو وليد لا تنسانا بالله، اذكرنا، اتصل بكل المحافل الدولية، قول إنّو في سجناء رأي من الـ١٩٨٠، انقل إليهم الأخبار كلها، خبرهن شو عملوا بالإخوان عام ١٩٨٠، كيف كانوا يقتلونا ويميتونا ويعذبونا، علّ وعسى يفرجها الله علينا. فالرأي العام والمنظمات الدولية بيطلع بإيدا، اطلب منهم أن يصدروا بيانات رسمية تطالب بالافراج عن المساجين السياسيين، عنّا هون ما بيخافوا إلا من برّا.

قال آخر: أخي علي، السوريون تركوا لكم شوية حرية رأي بلبنان، وبخاصة عند الإخوة المسيحيين، فيكم تحكوا متل ما بدكن، مو متل عنا أفواه مقفلة إلى أجل غير مسمى، أو فقط للأكل، خليك قبضاي، موو هيك؟ أوعدنا أخي علي.

ـ والله ثم والله سأنقل كل ما أعرف إلى حيث يجب. أقسم لكم سأفعل.

وجاء المناوب يرافقه شرطي، وبينما كان يفتح الباب انهال عليّ زملائي بالقبلات والعناق، وبكينا بكاء أمّ ستفارق وحيدها. علق في ذهني المشهد حيث نظرت إليهم بطريقة لم أعهدها من قبل، ولم أفهمها حتى اليوم، لم أميز الفرح من الأسى، فاكتفيت بالدعاء لهم أن

يلحقوا بي إلى حيث أنا ذاهب، إلى الموت أو الحريّة، الموت أهون الشرور في السجون السورية.

سرت بين أفراد الشرطة مكرهًا، أتطلع إلى الوراء ملوّحًا بالوداع حتى غابوا عن نظري، ثم نزلت الدرج وبقيت عالقة هناك صورة زملائي الذين لم أر لهم وجهًا منذ إطلاقي حتى كتابة هذه السطور.

عندما وصلنا إلى الطبقة الأولى، سمعت جلبة اختلطت فيها اللهجة اللبنانية بالفلسطينية: «قديش صرلك ولوه، بعدك هون؟ وزب! فكّرتك طلعت».

ودخلت...

- أهلًا وسهلًا أبو وليد، فكرناك تركتنا من زمان، تاري منّك هين يا ملعووون!

- «كيفك علّوش؟ هيدا علّوش بعرفو من زمان، من الدكوانة ببيروت، أهلا علوش».

لم أميّز صاحب الصوت ولا وجهه من شدة الضجة، لكنني سرعان ما أدركته، إنه جورج م.، فعانقته أسوة ببقية المساجين في الغرفة، الذين تعرفت إلى قسم منهم، بينهم من أمضى ١٥ سنة في السجون السورية.

وصل عددنا يومذاك إلى ٤٥ لبنانيًا و٩ فلسطينيين كانوا يعيشون في لبنان وبدأنا نتعارف، فنقدم أنفسنا بالمدة التي قضيناها في مراكز الاعتقال. منهم من أتى من سجن المزة، وآخرون من فرع فلسطين وصيدنايا، فتدمر وفرع المنطقة.

سأل أحدهم:

ـ قولكن من هون لوين؟

ـ لبنان أكيد، مش تدمر!

ـ قولكن من لبنان على البيت أو على رومية؟

ـ يا أخي وسخ لبنان أفضل من كل سورية، إنشاء الله على جهنّم، بس بلبنان.

ـ ولك سكوت! بعدنا عندن!

ـ ... بكون ما إلي نصيب إرجع ع بلدي.

أحضروا الطعام، كنت في اليوم الثالث من الإضراب السرّي، وقد اعترى الاصفرار وجهي، فقال زملائي:

ـ شو يا بو وليد، ما تكون مُضرب عن الطعام؟ يالله قربت تعبط مرتك وولادك وتبوّسهن.

كانت هذه الكلمة المعبرة البسيطة كافية لتعيدني إلى صوابي، بعبط مرتي وبوّس ولادي، معقول؟ ليش لأ؟! الله كبير. قلت لنفسي يلّا يا علي كووول.

فعلًا، «شطّت ريلتي» لما رأيت الأكل: أكرمونا قبيل إطلاقنا فجلبوا بطاطا مسلوقة وبيضًا، أكلت منها واحدة على ٦ دفعات. وعلى رغم ذلك أحسست بألم في معدتي، لكنني أجهزت على حبة بطاطا وخبأت ٣ بيضات لوقت لاحق.

بقيتُ صامتًا، وخفتُ لأن الصورة لم تكن واضحة بعد. لم أرد العودة إلى تدمر، أو إلى أي سجن آخر. تقريبًا الترتيب نفسه. النظام،

يجمعوننا، يطعموننا، وبعدها يعصبون عيوننا وينقلوننا، ترى إلى أين؟ لا أحد يعرف، هكذا صار معي منذ ١٣ سنة، من فرع السويداء إلى فرع المنطقة (المسلخ)، إلى فرع فلسطين، إلى فرع التحقيق، إلى جهنّم سجن تدمر. ومن الأخيرة إلى سجن صيدنايا. والفرق أننا متفائلون! اكتفيت. بدأت أشعر بالغثيان، وعدت بالذاكرة إلى اليوم الذي أطعموني فيه الصراصير. أسرعت إلى الحمام ولم أدركه. تقيأت، فوسخت ثياب بعض زملائي الجدد. لم أعرف لماذا بدأت حرارتي بالارتفاع. قرعوا الباب، طلبوا الطبيب أخرجوني إلى غرفة ثانية وبعد فحصي أعطاني إبرة ضد التقيؤ. وبنبرة لئيمة قال لي المناوب المساعد:

ـ «ولاه، ما عاد فيك تهدّي يومين؟ شوف عيلتك وبعدين الله لا يردك! إنتو أفرج عنكم وبعد ساعتين ننقلكم إلى فرع فلسطين لتتسلموا أغراضكم وتحلوا عن طيزنا، وتفلوا من دون رجعة إن شاء الله إلى لبنان».

بسحر ساحر، أحسست بحرارتي تنخفض، وتنشطت مثل طرزان، ومن دون أن أدرك كيف أو لماذا، عانقت المساعد المناوب وقبلته، وما إن وصلت إلى الغرفة حتى زففت الخبر السار إلى رفاقي، فعلا التصفيق والصراخ: «جايين يا أرز الجبل جايين، يا لبنان دخل ترابك، والدلعونا...» والبعض شبك يديه للدبكة اللبنانية، فإذا بصوت من الخارج ينهرنا. اسكتوا ولاه... وعمت الفوضى المطلقة المكان.

بعد ساعات قليلة، أعادت الشرطة تعداد أسمائنا. كانت الثامنة صباحًا عندما أصعدونا إلى الشاحنة، وقد كبلونا مثنى، ومن دون أن يعصبوا أعيننا. انطلقت الرحلة ببطء كما شعرنا ولكن من أنتظر دهرًا وشرب بحرًا لا يغص بساقية، كما يقول المثل. قال لنا المرافق العسكري بعد الإلحاح وقبض الحلوينة ١٠٠٠ ليرة سورية، إننا ذاهبون إلى فرع التحقيق العسكري. بدأت أتذكر الماضي وكأنه لحظات رغم صعوبته وقساوته. كنت هنا منذ ١٢ سنة وثلاثة أشهر أو ١٤٧ شهرًا أو ٤٤٧٤ يومًا وليلة، لقد صدق المرافق...

نقلتنا المحطة الأولى للرحلة إلى فرع التحقيق العسكري، فالغرفة الخامسة التي أرسلتني إلى جحيم تدمر ولعنته، ما زالت هي هي. تذكرت كل شيء، ونقلتني رائحة الجدران إلى سنوات العذاب الطويلة التي انتهت كما بدأت، من دون أن أفهم أو أعرف كيف أو لماذا؟!

بُعيد وصولنا فكّوا القيود وأنزلونا إلى إحدى الغرف، حيث طلبنا بعض الطعام والشاي، وكان لنا ما أردنا، طبعًا بشروط:

ـ «اطلبوا شو ما بدكن، معكن فلوس... في، ما معكن كلوا خـ...».

كانت الغرفة نتنة الحرامات متسخة جدًا، الرطوبة عالية، وكان عددنا كبيرًا لغرفة واحدة (٢٧ شخصًا). التنفس صعب لا تهوئة ولا من يحزنون، زد على ذلك البرد القارس، إننا في كانون الأول، طالبنا بزودة حرامات. كان الجواب ما فيييي.

خبرتنا مع السجّانين كبيرة، دفعنا ٢٠٠ ليرة سورية فورًا أتانا

الرقيب ومعه ٢٧ حرامًا، أقل وسخًا من السابقة، قال أحدنا: شو رأيكم ندفعلو ٢٠٠٠ ليرة قولكن بيجبلنا شرمو...؟!

ضحك من دون تعليق. بعدها بقليل أتونا بالأكل. ملأنا بطوننا بما لم نأكله من دهر: سندويشات، سجق، نقانق، شعيبيات، بقلاوة. ونمنا ليلة كما يقال «من دون هزّ».

في مساء اليومِ الثاني لوصولنا، في ١١ كانون الأول تحديدًا، فتح المناوب الباب قائلًا:

ـ «اللي بيطلع اسمو، فورًا بيقول اسم أمّه، تاريخ ولادته ومكانها وبسرعة، عنا شغل غيركن، مفهوم؟ ويجيب أغراضو ويجي: محمد نزار، علي أبو دهن...».

لم أسمع بعدها شيئًا. كنت الثاني بالأسماء... فقد رأيت ضابطًا لبنانيًا برتبة نقيب. ابتسمت له فعبس بوجهي ورمقني بازدراء. قال آمرًا:

ـ «حطّ إيدك ورا ضهرك!».

ـ «ما فيّي، كتفي مكسور».

ـ «ورا ضهرك وبلا منــ...».

ـ «قلتلك كتفي مكسور»، قلتها بنبرة. فما كان منه إلا أن أمسك ذراعي بالقوة، قاومته وتوجّهت بكلامي إلى العقيد السوري الذي كان إلى جانبه:

ـ «سيدي، كتفي بيوجعني، ما في إتكلبج لورا، شو عليه من قدام؟».

ـ «هيدا ابن بلدك، تفاهم معو، ما خصني، أنا سلّمتو ياكن».

ـ «إيديك ورا ضهرك أحسنلك».

فخضعت، وشتمت في قلبي هذا العسكري اللبناني الذي يعاملني بالسوء بعد كل ما مررت به، وانتابني القرف. جعلوا على عينيّ قماشة سميكة من جديد، فأظلمت الدنيا بوجهي أكثر واقتادني جندي من يدي إلى البوسطة: «ارفع إجرك على الدرجة، وطّي راسك، امشِ على مهلك، انتبه، اقعد». جلس بقربي. وكان إلى جانب كل سجين شرطي لبناني يراقبه. لم تستغرق حمولة ٥٤ سجينًا وقتًا طويلًا. منعنا من التكلم أو الهمس بانتظار الأمر للمسير.

بعد أن اكتملت حمولتنا، حيث كنا موزعين على ثلاثة «فانات» قال الضابط المسؤول:

ـ ٣ إنت جاهز؟

ـ نعم، سيدنا.

ـ ٢ جاهز؟

ـ نعم، سيدنا جاهزين.

ـ انتبهوا منيح ما بدّي أي غلطة، فهمتو؟

ـ نمر، نمر... نعم. انطلق ع مهلك وخليك معي.

ـ حاضر.

وانطلقنا من الشام...

كانت العصابات على أعيننا تحجب الرؤية تمامًا. ولكن الذاكرة عادت بي إلى سنوات خلت، وعرفت الشام جيدًا. فبدأت أقدّر الطريق:

هنا ينتهي طريق عام مزة، وأخذت الدرب صعودًا، ثم توجهت إلى الشرطي الذي كان إلى جانبي فقلت له بصوت عالٍ:

ـ إيدي اليمين بتوجعني، فكها.

ـ لحظة...

أتى شرطي آخر وتحسس الأصفاد:

ـ رخوة، مش شديدة!

ـ كتفي مكسور، ما فيني إتحمل.

ـ يلاّ تحملت كتير، بعد ساعة بتوصل.

ـ ولوه، فكها إذا بتريد.

وصاح أحد رفاقي:

ـ إيدو مكسورة، فكّولوا الكلبشة.

ـ يلاّ رح اتصل بالضابط، على الحدود بتنحلّ إن شاء الله.

أخفضت رأسي حتى لامس المقعد الأمامي، حيث العصابة التي غطت عينيّ، ورفعتها بحيث بدأت أرى قليلًا. استرقت النظر، فقدرت أن نكون اقتربنا من طريق المصنع، وبدأ قلبي ينبض بسرعة.

سمعنا أبواق السيارات مع اقتراب البوسطة من الخط العسكري على الحدود! ورأيت المطر! الأهالي! والسيارات بالعشرات تنتظرنا! أضواء تومض! وبدأنا نصرخ:

ـ وقّفوا! بدنا نشوف أهلنا! فكّوا الكلبشات! بسرعة! شو نحنا يهود؟!

ـ ما فيكن تمنعونا من شوفة أهالينا! نحن مش يهود ولا مجرمين

ولا حرامية. حتى إذا كنا... إلنا حق نشوفهم، وقّف البوسطة يا ريّس، قال آخر.

صرخ شرطي بصوت عالٍ قائلًا: ليكو بلا منيكة (بلهجة عكّارية شمالية)، القافلة ما بتوقف، اسكتوا أحسن إلكم.

أجابه أحدنا: شوف أنا رقيب أول بالجيش اللبناني، يعني نحنا زملاء، ما فيك، ولا بسمحلك تتأمّر علينا احترم نفسك.

الجدال ماشي والبوسطة تسير أو «القافلة تسير والكلاب تنبح».

بعد تلك الفوضى والجدال العقيم بين مساجين مكبّلين وجنود لا يدرون ماذا يفعلون سوى تنفيذ الأوامر المعطاة لهم بأننا مجرمون خطيرون لا يستهان بنا، تعاملوا معهم بلا شفقة أو رحمة. أجبرتنا الشرطة على السكوت، أجلسونا رغمًا عنا، ووعدونا بفكّ القيود وجعلها من الأمام. وفعلًا بدأوا بحلها.

وعلى رغم هطول المطر، رأيت الناس التي تنتظرنا، كان أهالي المرج يلوحون بأيديهم، يرسلون قبلاتهم في الهواء، فرحين بعودتنا إلى الوطن، القبلات، السلامات، رفع الكؤوس من على الشرفات، كل عوامل الابتهاج رأيناها بالسرقة من تحت العصابات المرفوعة قليلًا. فرحنا على رغم أننا لا ندري ما إذا كنا سائرين نحو الحرية أو المجهول.

واستمتعت بفرح غريب بالأبواق التي انطلقت من السيارات.

كان عناصر الشرطة اللبنانية في هذا الوقت قد فكوا كل قيودنا إلّا قيدي مع شخص آخر. لم ينفع المفتاح.

بكيت بحرقة وألم لأن كتفي كانت مكسورة من زمن، نتيجة التعذيب، ولم تصلح أمورها بعد، لا أستطيع وضع يدي بهذا الشكل إلى الوراء، وكم لعنت هذا الضابط اللئيم وقلت هذا حظّي التعيس حتى المفتاح أبى أن يفتح الكلبشة... آخ يا حظ!

ها هي ساحة شتورة. الناس تجمعت بالساحة، ولوحت بأيديها أو هكذا خيّل إليّ بأن لبنان كله مبتهج بعودتنا من الأسر، من السجن، بل من المسلخ حيث رفعت السكاكين عن رقابنا وبدأنا بالصعود نحو ظهر البيدر. الطريق واسعة، الأنوار صفراء، الثلج... لم يعلق أحد على كلامي وكأن كلًّا منا كان يرى من زاوية ثانية أو يستحضر ذكرياته على هواه. آه يا لبنان ما أجملك! ها هي صوفر، بحمدون ساحاتها خالية، أين أنتم؟ استفيقوا. ها نحن عدنا، أين الاستقبال؟ وعلى دوار عاليه قليل من الناس لوّحوا لنا، وخُيّل إليّ أنني أسمع تصفيقًا. الكحّالة وكأنها اختصرت كل لبنان. على كوعها المشهور عشرات من الشباب والنساء يلوّحون لنا بالأعلام اللبنانية تصفيق وهتاف وقبلات، حاولوا إيقاف القافلة فلم يفلحوا، رفاقي رفعوا لهم أيديهم على رغم الأوامر الصارمة شاكرين ممتنّين، وبدوري حييتهم بتحريك رأسي يمنة ويسرة.

ومع اقترابنا من بيروت، بدأ قلبي يخفق بسرعة أكبر، وأحسست بجسمي يتنمّل، اقشعر بدني.

ومع وصولنا إلى مقر وزارة الدفاع، انعطفت البوسطة إلى اليسار، وبدأت تدخل شوارع ضيقة.

فجأة أمرتنا الشرطة بإعادة العصابات إلى رؤوسنا، فتولى كل واحد منا أمر زميله، وعاد وضعنا شرعيًا. لم نعرف إلى أين نتجه، فقدّرنا أن تكون هذه منطقة الوروار، أو اليرزة.

أنزلونا بكلام معسول، الحمد الله على السلامة إن شاء الله ما عاد في لبنانيين في السجون السورية، هون أنتو في بلدكم، بين أهلكم ما تخافوا، زال الخوف والظلم.

شيء يدعو إلى الريبة. الفرق بين عسكر المواكبة وعسكر الاستقبال شاسع. فكوا قيودنا، دخلنا هنغارًا كبيرًا مقسومًا إلى ثلاث غرف كبيرة. فرشات إسفنج مخصصة للجيش نظيفة جدًا مع حرامات صوف عسكرية.

ـ كل واحد يأخذ مكانه إذا بتريدوا، قالها ضابط بلهجة غير عسكرية، غير ذلك اللئيم في المواكبة. إلى كل غرفة أتى رقيب أول لاستلام الأمانات منا: إذا بتريدو ما بدنا أي مخالفات هيك بنبقى أحباب...

بعد الانتهاء من الترتيبات بدأت مطالبنا، وأولها دخان أجنبي وطعام: جبنة قشقوان، مرتديلا، قهوة، شاي... الله يخليك كل شي طيب فيك تجيبو ما تتأخر: قالها رفيق لنا.

- تكرم عيونكم نصف ساعة بس: لم يغب طويلًا، سلمنا الأكل والدخان وخرج. بعضنا لم يكن يهمه الأكل. الهمّ الوحيد ماذا سيحل بنا. كان بحوزة أحدنا راديو صغير خبأه في مكان ما، كانت الساعة ١٠,٤٥ عندما سمعنا أخبار «صوت لبنان الحر»، مؤتمر صحافي

للمدعي العام التمييزي عدنان عضوم يتلو أسماءنا مع تاريخ توقيفنا ومدة الحكم. تصريح عضوم وقوله إن من كان عليه جرم في لبنان سيحول إلى المحكمة أما الباقون فسينظر القضاء بأمرهم وهم بعهدته، أجاب على بعض الأسئلة وتغاضى عن الأخرى.

انتهى البيان، ليأتي دور المذيع الذي قال: بعد غيبة، وطول انتظار دخلت إلى لبنان ثلاث حافلات ناقلة أبناءنا من السجون السورية، مكبلين بالأصفاد، معصوبي الأعين، مطأطئي الرؤوس، كأنه لم يكفهم ما نالوه من ذلٍّ وسوء معاملة واحتقار، فحرموا من ملاقاة أهاليهم ورؤيتهم على الحدود الفاصلة. أهكذا يعامل سجين الرأي والكلمة؟ لماذا لم يعاملوهم أسوة بسجناء الخيام. الاثنان سجنوا ودينوا متعاملين مع دولة أجنبية؟ لماذا لم ينصفوهم؟ أسئلة في حاجة إلى أجوبة من المسؤولين. وأكمل قائلًا: علمنا من مصادر موثوقة بأن الموقوفين سيقدمون إلى المحكمة العسكرية، ومن تثبت براءتهم سيفرج عنه والباقون سينالون عقابهم. ألا يكفيهم؟!

بدأنا بالتحليل السياسي: من منا سيبقى ومن سيطلق سراحه؟ قلت: شباب من عليه حكم صادر في لبنان أو تهمة غير سياسية أو دعوى عليه سيحول حتمًا إلى سجن آخر. أما من كان مثلي لا غبار عليه فسينام غدًا قرب زوجته كما قال عضوم. رد أحدهم: إنت حلل على كيفك. وقال آخر: ليش إنت مش عامل شي بلبنان؟ أجبت بالنفي. قال: نيالك!

المسؤول العسكري السابق في الحزب الاشتراكي أبو هيثم قال

لي بمرارة: أنا رح «تخ» في السجون اللبنانية. أكثر من مئة دعوة عليّ. وقال آخر: أنا خمس دعاوى. على كل، قال أحدهم، من كان حظه جيدًا الله معه، بس مش لازم ينسى رفاقه أبدًا ويجب عليه زيارتهم في سجن رومية، مش هيك أبو وليد؟ أجبت: نعم، معك حق. يلا بكرا منشوف شو بيصير.

كانت الهنغارات التي أوينا إليها نظيفة، مرتبة، فرشات عسكرية مع أغطية نظيفة تناديك للراحة. من شدة التعب نمت كما البعض من رفاقي «من دون هزّ» كما يقال، لم أصحُ إلا على صوت الرقيب يقرأ بعض الأسماء ومن ضمنهم اسمي.

إلى الخارج حيث كانت شاحنة بانتظارنا، كلبشة + طميشة = موقوف. صعدت في شاحنة عسكرية وعصبوا عينيّ وكبّلوا يديّ وكنت برفقة عشرة موقوفين من زملائي. توجهت بنا الشاحنة مع مرافقة عسكرية شديدة وزمامير وصياح لفتح الطريق. لم تأخذ الرحلة سوى دقائق وحط بنا الرحال في وزارة الدفاع في الطبقة الأرضية ومن خلف المبنى. دخلنا كما صعدنا معصوبي الأعين ومكبّلي الأيدي. سجلوا أسماءنا.

وبصوت خافت بالكاد يُسمع استلموا الأمانات التي بحوزتنا واقتادونا إلى ممرّ وُضعت فيه فرش عسكرية مع حرامين على كل منها. وبالدور أجلسونا. وقال أحدهم آمرًا: ما بدي إسمع ولا كلمة ولا همسة. الحكي ممنوع. قدر ما تحترم القانون قدر ما نحترمك، سامع؟ من يحتج شيئًا يطلب الحارس. يقول يا سيد عطيّة. إنتو

مراقبين ٢٤ على ٢٤ بس هيك. بدّلوا وضعية الكلبشة من الخلف إلى الأمام.

أحضروا الترويقة، الأولى لنا في لبنان. آه ما أطيبها! ٣ أشكال هكذا قال عطية: يوجد لبنة مع خضرة، جبنة وزيتون، زبدة ومربى. كل واحد يقول ماذا يريد، ويمكنه أن يأكل قدر ما يشاء.

فقلت أنا: جبنة وزيتون وواحدة زبدة ومربى ومعها كاسة شاي، بعدها إلى الحمام الذي يبقى مفتوحًا، وعدنا إلى الفرشة. مر الوقت بطيئًا، وأنا معصوب العينين، شارد الفكر، سارح أفكر بالآتي: ماذا يريد القضاء مني؟ أنا لم أفعل شيئًا ضد بلدي. هل يوجد ظلم هنا مثل سورية؟ غير ممكن. ثم إن من شرب البحر لن يغص بالساقية. حبس شهر أو اثنين أو سنة ليس مهمًّا ومش فارقة معي. طيب لماذا يريدون أن يحبسوني؟ كان يقطع شريط أفكاري أحيانًا صوت العسكري عطية وهو يرد على أحد الموقوفين ملبيًا له طلبًا أو رافضًا أحيانًا، أو طالبًا أحدًا إلى التحقيق. أعود ثانية إلى تفكيري وأسأل: كيف أقابل البنات وأمّهن؟ يا الله، كيف صاروا؟ هل سأعرفهم إذا التقينا في الشارع أم لا؟ زوجتي ربما أكل الدهر عليها وشرب من الهمّ والعذاب. مش قليلة كانت زوجة وأمًّا، أصبحت أمًّا وأبًا عليها تقع كل المسؤولية. بس الحمد لله زوجتي قوية وتعرف تدبر حالها. أنا من هذه الناحية فكري فاضي بس حرام البنات، يا الله شو ذنبهم ليربوا من دون أب؟! يلّا هيدي الدنيي هيك. شو أنت أول واحد بينحبس؟ هؤلاء رفاقك عندهم أولاد وزوجات وإذا كنت رجّال واجه الحقيقة عندما تصبح برّا. هنا سمعت عطية يقول: الغداء حاضر، فاصوليا ورز. قلت أنا ما بدي.

قال: على ذوقك.

لم يأخذوا الغداء، غفوت بعد الظهر قليلًا لأصحو على صوت عطية ثانية: أنت علي أبو دهن؟ أجبت نعم. قال تعال معي. ساعدني على الوقوف لأن حالتي كانت بالويل فكتفي شبه جامدة ويدي ورجلي اليمين كذلك. لكن، عندما كنت أقف لدقيقة واحدة ويسري الدم في عروقي أصبح مثل الحصان. مشيت معه مسافة قصيرة وهو يمسك بيديّ المكبّلتين. أدى التحية وقال: سيدي، حاضر. لم أسمع صوت المضيف الذي تبين في ما بعد أنه المحقق.

أجلسني على كرسي جلد، (تذكرت فورًا كرسي الحديد الذي جلست عليه للمرة الأولى في فرع «المسلخ»)، وشعرت بقشعريرة تسري في دمي وعرق بارد يتصبب من جبيني أو هكذا هيّئ لي. فك قيدي وترك العصبة على عينيّ. أدّى التحية مرة أخرى وسمعته يقول: حاضر، سيدي. وخرج وأغلق الباب خلفه. أقسم بالله لم أكن خائفًا بتاتًا. كنت حتى أبرد من المحقق نفسه، انتظرته لكي يتكلم هو أولًا. لم أطلب أن يريحني من العصابة. وبعد دقيقتين قال بصوت هادئ جدًا ملؤه الدفء والثقة: شو عامل يا علي؟ أوووف ولوووه! كل هيدا إنت عامله؟ هات احكِ لي.

ـ ما في شي بتاتًا. كله تحت التعذيب صار هيك.

ـ مش معقول.

ـ في سورية كل شي معقول سيدنا. الله لا يجرب حدا أبدًا.

ـ ولوووووووووو قابلت شارون مرة واحدة؟

ـ مكتوب هيك؟

ـ نعم.

ـ هل تصدق ما كتب؟

ـ طبعًا.

ـ إذًا، مثل ما مكتوب مزبوط. إنت اقرأ وأنا أوافق.

ـ طيارة هليكوبتر بتاخدك من ساحة حاصبيا العامة بوضح النهار إلى إسرائيل.

ـ إذا هيك مكتوب بيكون مزبوط!

ـ والله، مش قادر صدق إنو في عميل إسرائيلي كبير قدامي، قابل رئيس وزراء سابقًا، وقابل رئيس أركان ورئيس وزراء حاليًّا، ويشكل كل الخطر على الأمن القومي، وبعدو عايش!

ـ يا سيدي، إذا إنت مصدق هالحكي ممكن ساعد في مفاوضات قادمة.

ـ إخرس، شو مفكر حالك عالمسرح هون؟

ـ طبعًا لا سيدي، أنا موجود قدّامك. الملف بين إيديك، وأنا كمان. شو بتقرر حضرتك بيصير.

ـ طبعًا، وصاح بصوت عال: عطية، عطية، فوت.

دخل عطية السجان حيث علمت لاحقًا أنهم كلهم اسمهم عطية.

وهنا، قلت: سيدي أنا مريض معي روماتيزم، ركبي ومفاصلي ورجلاي تؤلمني من البرد وأنا في حاجة إلى حرام زيادة وحبة أسبيرين كل ٤ ساعات. كتفي شبه جامدة، مفصل يدي اليمنى عند المعصم يؤلمني جدًا. ما فيي إتحمل الكلبشة.

لا أدري كيف قال أو أمر عطية: سمعت شو قال علي يا عطية؟ من دون كلبشة، حرامان زيادة، أعطه حبة أسبيرين كل ٤ ساعات.

أجبت: شكرًا سيدي.

قال: ستذهب إلى البيت يا علي، ما في شي عليك عنا.

قلت: ١٣ سنة شو صار فيها؟

قال: مع الأسف ما إلي دخلة فيها. اشكر ربك زمطت. بس بكل الحالات أنت ستكون تحت المراقبة الدائمة، لا شمال ولا يمين مفهوم يا علي؟

ـ ولو سيدنا، طيب فيك من فضلك تعطيني ورقة إني كنت في سجن في سورية ١٣ سنة.

ـ طبعًا لا.

قلت: حاضر سيدنا، بس روح على البيت. والله كريم ما بعمل إلّا يلي أنا راسمو بفكري. شكرًا. وخرجت وعدت إلى مكاني على الفرشة ولم أرَ وجه هذا المحقق أبدًا. لكن، إذا سمعته أعرفه حتمًا. لم يكبّل يديّ ووضع حرامًا فوق رجلي. تساءلت هل أجبته صح أم كنت ناشفًا بأجوبتي؟ هل كانت مقنعة؟ كان يجب أن أقول له إني كنت من سنة ٧٥ إلى سنة ٨٠ في حركة الشبيبة اللبنانية مع الباش مارون خوري في الدكوانة. وكان يجب أن أعترف بأنني لم أقابل رئيس وزراء ولا رئيس أركان إسرائيليًا. ليش مين أنا حتى أتقابل معهم؟!

تمددت وأكملت الجولة حتى صحوت مساء وقت العشاء: سندويشات، طون، لحمة، روستو؟ شو بدك؟ أجبت: لا شيء فقط ماء.

قال عطية للجميع: كلوا طون طيب!

لم آكل. نمت نومًا عميقًا ومرتاحًا. لم أدرِ لماذا أعطاني كلام هذا المحقق أملًا بأني سأكون حرًّا بسرعة. بقينا يومين موقوفين في اليرزة، الوقت مرّ ببطء ولكن لم نتعرض إلى أية إهانة أو كلمة تزعج، طبابة، أكل، معاملة جيدة... عند التاسعة من صباح ١٤ كانون الأول نادوني مع ١٣ من رفاقي. ذهبنا إلى غرفة الأمانات واستلمنا أغراضنا. إلى السيارة مكبلين مطمشين. بقي أبو هيثم، جمال كرارة، في وزارة الدفاع. فورًا إلى نظارة أو سجن قصر العدل. مع كل الزمامير والهيصة والعيطة من الشرطة العسكرية لفتح الطرقات أمامنا، كنت أتخيّل من منعطفات الطرق أين أنا. هنا الحازمية ودوار الصيّاد وهنا لم أعد أعرف، طريق سريعة من دون زمامير. سألت نفسي شو طريق واسعة جديدة ما بعرفا؟! (وبعد ذاك عرفت أنها أوتستراد الحازمية الجديد، بغيابنا أنجزوها). وصلنا، وفورًا أخلوا لنا غرفة كبيرة. دخلنا... أمر؟ ما حدا يحكي معهم... أمانة عندكم لساعات أمّنوا لهم حاجياتهم وبس. مفهوم... أجاب صوت. أمرك سيدي، وانصرف. هنا، أيضًا علينا أن نسلم أغراضنا والأمانات ونأخذ وصولات بها. هذا روتين السجن. أتى الضابط أعطى أوامر صارمة إلى العسكر: ممنوع حدا يحكي معهم إلا بإذن خاص مفهوم؟ خطرين جدًا.

وعند الظهر دخل علينا بعض رفاقنا فازداد عدد الموجودين في سجن العدل، أما الآخرون فلم نعرف عنهم شيئًا في حينه. الضابط المناوب منع الشرطة من الاقتراب منّا أو حتى التكلم معنا، لماذا لم أدرِ حتى الآن؟! معنا فلوس بدنا نأكل قلت للشرطي، قال: اكتب

شو بدك وعطيني الفلوس! لشوقنا إلى رؤية الفرّوج المشوي كاملًا، (أي مع الأفخاذ والطيز)، طلبت ١١ فروجًا، ٤ كيلو شقف، ٤ كيلو كفتة، ٥ متبل حمص، كبيس، ٥ بيبسي، ٥ سفن آب كبار، وربطتي خبز. استغرب الشرطي ولكنه أخذ الفلوس وغاب. جهزنا السفرة، جاء الأكل. كنت الشاويش، طبعًا هذا مزاح، وبعد التوزيع المنصف أمرت الجميع بأخذ أماكنهم والنظر إلى السفرة من دون مسّها إلا عند كلمة البدء. التعليقات جاءت كما يأتي: فروج مع فخاذ! مش مارق على الشرطة السورية! لا، البلد فيها أمان، شو بيبسي؟! الله أكبر. يلا يا علووووش، ما فينا بقى نصبر. طيب روقوها شوي تصبّبوا عليهن هيدي سفرة! يلاّ انتباه: ١ ـ ٢ ـ ٣. والله ثم والله وبسرعة هائلة لم تدم سوى دقائق معدودات ومن دون أية كلمة من أحد! غطّ الحمام طار الحمام، ما بقي شيء. سمعت قرقعة العظام، قلت مازحًا: ولو في بسينات برّا، اتركولها شوية، قال أحدهم: الكلاب سبقوهن... هاهاها. كانت المرة الأولى التي أشبع فيها منذ ١٣ سنة بما فيها زيارتي عندما كانت زوجتي تجلب لي ما أشتهي ولكن كنّا نتقاسم الأكل فلم أحظ مرة بنصف فروج ولا بهذه الكمية من الطعام.

كأي والد في العالم محب لأولاده كنت أنتظر دومًا، بل أتوق للفرحة بزواج بناتي الثلاث، وقد وددت لو كان لي الفرصة لمشاركتهن أحزانهن وأفراحهن، وأحلامهن وكوابيسهن... حتى لم أستطع أن أقدّم لهن نصيحة واحدة، أو أقول لهن هذا جيد للّبس وهذا لا.

الشعر لا أحبه قصيرًا اتركيه طويلًا، أحب لبس الفستان أكثر من البنطلون، رُحن إلى البحر أو لا ترحن، وكل هذه الصغائر أو الكبائر

كل ما يحدث مع جميع العائلات، غنية كانت أم فقيرة، حدثت من دوني، لم يكن لي رأي بها.

وها هن اليوم كبرن وترعرعن، ضحكن وبكين، تعلمن ونجحن وأنا بعيد، لم أر ابنتي تلبس ثياب أختها مع ما قد ينتج عن ذلك من مشادات صغيرة محببة، ولم أضمد جراح الأخرى عندما ركبت الدراجة الهوائية للمرة الأولى...

أبعدوني عن أطفالي وعدت فوجدتهن صبايا. نضجن، بالكاد تستطيع أن تفرق بينهن، أما بنت العشرين فأكثر من أبكاني ليس لأنني أحبها أكثر من غيرها. لكن، لأنها تزوجت قبل خروجي بأربعة أشهر لا غير، ولم أكن حاضرًا لتسليمها كما يفعل الآباء في مثل هذه المناسبات السعيدة، ولم أمسح دمعتها الغالية قبيل انتقالها، إلى عريسها.

هكذا، حُرمت كتلة الأحاسيس الأبوية التي ترافق الزفاف، فلم تدمع عيناي يومها ولم أبكِ... ولم أقبّلها قبلة الوداع عند خروجها من البيت الذي ترعرعت فيه وتربّت. فلا ذراعها تأبّطت يدي، ولا لمست أصابعي المرهقة من عدّ الأيام شعرها المسرّح، وفستانها الأبيض بالأحلام الوردية، ولا رأت عيناي دمعها يتدحرج على خدّيها من تحت الوشاح.

ركبت تاكسي. قلت للسائق:

ـ الدكوانة إذا بتريد.

ـ من وين إنت جاي؟

ـ من السجن السوري.

ـ الحمد الله على السلامة.

وبدأ يسأل: في بعد مساجين؟ عذّبوك؟ أخوات الشر....

ـ قد ما بدّك وزيادة...

ـ والله أنا زمطت منهم زميط نمت ليلة واحدة بالبوريفاج وأكلت دولاب من أخو الشرمو... رستم غزالة كان بعدو ظابط زغير... وكنت أسمع تتمة دون أن أسجل ما يحدث. وصلنا إلى الدكوانة.

ـ وين بدك بالدكوانة حبيب القلب؟

ـ لا، هون مش الدكوانة، (شارع جديد لم أعرفه)، والله مش عارف وين أنا، ممكن تاخدني الى النافعة وهونيك أنا بعرف بيتي!

ـ ولك تكرم عيونك هيدا شارع إسمو الشارع الجديد أمام النافعة.

أخيرًا هون بهذا الزاروب إذا بتريد رابع بناية الله يخلّيك. هون ما في شي جديد. وصلنا نزلت من السيارة ضايع... تايه مش عارف وين ربي حطني... تذكرت أني لم أدفع له حبيبي قديش بدك معي مصاري سورية...قبلني وقال لي: الحمد الله على السلامة روح ما بدي شي... معقولي آخد منك... قبلته شاكرًا... وبدأت صعود الدرج ... الطابق التاني عند جيراننا. فتحت جارتنا ولما شافتني قالت يا عذرررررا!!! يا سمير، تع شوف مين إجا... رجعت لورا ووقعت على الأرض غميانة. إجوا ولادها وزوجها، قبلت الجميع ولكني لم أعرف الأولاد فقال سمير هودي ولادي يا علوش كبروا. أوف ولك إنت شو مغير يا علي!!! قلت له عيلتي هون؟ قال إيه. قلت له يلّا

أنا طالع. بالحقيقة لم أدرِ ما أنا فاعل؛ تائه، أفكار مشوشة، لا تفكير ولا تركيز وكأنني نصف مجنون. تركت الجيران دون استئذان وركضت إلى الطابق الخامس حيث بيتي...

قرعت الباب بشدة. فتحت زوجتي شهقت وقالت:

يا ربيييييييييي! وسقطت أرضًا دون حراك.

دخلت غير مبالٍ بما حدث أو كأن ما حدث لا يعنيني، الصالون ممتلئ صبايا وشبابًا بعمر الورود. همسات، كلمات، نظرات، لا أعرف لها معنى أنقّل نظري من صبية إلى أخرى علّني أجد ما أبتغيه. لا أعرف أحدًا لم أملِّ نظري من الشباب أريد أن أتعرف إلى بناتي! كل هذا حدث بلحظات... اتكلت على الله وبدأت أسلّم على الأولى، غمرتني بكت وبكيت، وبدأت أنتقل من شخص إلى آخر أبكي وأغمرهم. يبكون ويعانقونني لكني كنت أبكي لعدم معرفة بناتي من بينهم! انتهيت.... وقفت تجرأت وقلت: من منكم ندى؟ أتت إليّ صبية مثل البدر تشهق بالبكاء وقالت: أنا يا بابا ندى. غمرتها، قبلتها شاهقًا باكيًا، ودون أن أسأل عن بنتي الثانية نانسي أتت لوحدها غمرتني مع شقيقتها وقالت: أنا نانسي. الجميع يبكي، الشباب لم أعرفهم والبنات كذلك، (علمت بعد حين أنهم زملاء أولادي في الثانوية أتوا بعد أن سمعوا بأن اللبنانيين المعتقلين في سوريا سيفرج عنهم). تذكرت أنني رأيت زوجتي قلت: وين مرتي يا جماعة شفتها لما فتّ يه وينها؟ جاءت زوجتي وهي تبكي مسنودة على كتف أحد الشباب. ركضت... غمرتها وأنا أشهق وأجهش بالبكاء كطفل أضاع أمه... كرّت

السبحة وأتى كل من يعرفني من الجيران: الحمد لله على السلامة علوش. إنت كنت وما زلت بالقلب والله. أم وليد، (زوجتي) كانت حاملة حمل ثقيل يا علوش يلّا الله رجّعك بخير... أناس دخلت وخرج أناس وأنا ما زلت غائبًا حاضرًا أتصرف على سجيتي وبكل بساطة... وإذ بصبية كالبدر تدخل من الباب بصحبة شاب وسيم جميل، صارخة باكية. عرفتها من عينيها، إنها ابنتي الثالثة هبة، هي الوحيدة التي عرفتها لأنها كانت بعمر ٧ سنوات عندما رحلت عنهم، غمرتها وضاع رأسها بين ذراعي وقالت: بابا بدّي عرّفك على زوجي. تقدّم غمرني وقبلني قائلًا: معرّفًا عن نفسه: أنا ناجي أمين سابق الحمد لله على السلامة عمي. فقط علقت هذه الكلمات ولم أعرف ما أقول له... أومأت له كأني أقول أهلًا بك....

كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة حين بدأت الأخبار. وكل الأخبار كانت عن الإفراج عن المعتقلين اللبنانيين من السجون السورية وكان من بين الأخبار مقابلة أجرتها معي محطّة أم تي في. وأخرى أجرتها أل بي سي، وسي أن أن، وبي بي سي. وما إن انتهت الأخبار حتى بدأت الاتصالات الهاتفية. سمعت رنينًا مختلفًا وإذا بابنتي نانسي تحمل شيئًا بيدها وتقول يلا عمو شكيب لحظة لأعطيك البابا... ناولتني تلك الآلة وقالت: هذا عمي... أمسكت ما يقال له التلفون وبدأت أدوّر على الشريط. لم أفهم كيف يتكلم تلفون دون شريط. نظري يدور في كل مكان من الحائط إلى الأرض... دون جدوى وابنتي تقول إحكِ بابا والبقية يضحكون. استدركت نانسي بأني لم أعرف التلفون وأنه صنع بغيابي. ضحكت وبكت ووضعته على أذني حينها سمعت صوت أخي

وكلما أردت أن أحكي أضع السماعة على فمي... وبأعلى صوتي أتكلم كي لا يهزأ مني الجميع... أخذتني ابنتي ندى إلى البلكون... انتهت المكالمة، تلفون آخر وصوت موسيقى يرنّ. أسمع زوجتي تقول: الله يسلّمك حبيبي... إيه الحمد لله...ولك كيفك يا نعيم... إيه يلّا... كانت المكالمة من هولندا من رفيقي... التلفون الآخر كان في يدي حين أحسست برجّة ورجفة قوية، تذكّرت فورًا عندما كان المحقق يصعقني بالكهرباء. رميت ذلك الشيطان العجيب من على البلكون إلى الشارع. قالت ندى لا يا بابا شو عملت؟ قلت: كهربني بابا. قالت هذه رجفة الهاتف، رأيت دموعها تسيل. أخذتني بيدي إلى داخل المنزل... فجأة صوت جهوري من الباب صاح: علللوش، جيت؟ عرفت الصوت قبل أن أراه، إنه قائد حركة الشبيبة اللبنانية الباش مارون خوري بصحبة رفاق لي منهم قائد الشرطة العسكرية وآخرون معهم. حضنني الباش مقبلًا مستفسرًا شاكرًا ربّه على رؤيتي ثانية. وفد يأتي وآخر يودّع، زوجتي، بناتي، الجميع يبكي من الفرح... سألت زوجتي أين هيام ووسام وأزواجهن وأولادهن أينهم؟ قالت: بعد قليل يصلون من حاصبيا. الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلًا اقترحت زوجتي أن أتحمم وأبدل ثيابي رائحتها نتنة ووسخة. قلت حاضر سيدي وكأني أسمع أمرًا من رقيب السجن. ضحكت لأنها لم تفهمها وقالت: يلاّ حبيبي... حمّمتني هي وقالت: شو عاملين فيك؟ ليش هيك ظهرك أزرق؟ شو هيدا برجليك؟ إيدك ليش ما فيك تعلّيها؟ شو هيدا برقبتك؟ شو عاملين فيك أولاد الكلاب... الله لا يوفقك يا بشار. الله لا يرحمك يا حافظ... الله يغمقلك...إن شاء الله يصير بأولادك متل ما عم تعمل

فينا... يا... قلت لها: الحمد لله الآن أنا بألف خير كيف لو رأيتني من عشر سنين آآآآآآآآآآآآه كنت وقعت وما قمت... الباب يدق. يلاّ ماما. كان صوت بنتي هيام ووسام. وصلوا مع أولادهم من حاصبيا. وبسرعة لبست وعاودنا البكاء من جديد. هيام هي البنت الكبيرة وبعدها وسام وهبة وندى ونانسي وحبيب قلبي وليد المسافر إلى أستراليا... تعرفت على أحفادي كانوا أربعة.

شو بتاكل؟ شو رأيك بعروس لبنة مع زيتون وخبز صاج؟ وافقت وأكلت أنا وأولادي وأحفادي وشربنا الشاي ورحنا للنوم، الكل يريد أن ينام بقربي تمددت بالنصف وهن يغمرنني. ناموا جميعًا إلا أنا وزوجتي التي كانت من فوق البنات تملّس رأسي وكانت ليلتي الأولى في البيت...

بعد خروجي من السجن، ذهبت إلى المستشفى لأتفقد حالتي الصحية، ولقيت في مستشفى عين وزين معاملة جيدة، بل ممتازة، بخاصة بعدما علم الأطباء أنني كنت في سورية، لم أكن لأُحسد على وضعي الصحّي، إذ بقي في أذنيّ أثر مروّع للضرب، وما حمل جسدي وما تحملت أطرافي التي تبيّن أن قسمًا منها أصيب بعطل ككتفي ورسغي.

مكثت في المستشفى ثلاثة أيام كانت طويلة جدًّا ومزعجة بشكل كبير لمن لم يتعود بعد الضجة والصوت القوي وعجقة الناس والتساؤلات عن العذاب والتعذيب والضرب، وكل فرد يريد أن يكون الحديث موجّهًا إليه لا إلى غيره. أتى أشخاص من طرابلس إلى

مستشفى عين وزين لا لزيارتي، بل ليسألوا عن ابن لهم مخطوف في سورية وحذا حذوهم آخرون، ما اضطر إدارة المستشفى إلى أن تضع شخصًا على الباب يمنع الدخول. فكان للأطباء الكرام حصة بالسؤال والاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة حصلت لي في سورية.

وبالمقابل امتلأت الغرفة بالزهور والحلويات المهداة من أناس لا أعرفهم. فشكرًا لهم وعذرًا لهم على ما صدر مني.

بعد الفحوصات العامة وسلّة من الدواء قررت إدارة المستشفى تركي حرًّا.

عدت إلى حاصبيا حيث انتظرني الأهل. وكنت أتحرّق للقاء لن يتم بيني وبين والدتي الحبيبة التي رحلت بحرقة الأمّ التي سلبوها ولدها. ماتت واسمي على شفتيها الطاهرتين. وكم تمنيت لو يسعني تقبيل قدميها لألتمس السماح على غيابي القسري الذي حطّم فؤادها. أمّي الحبيبة، التي ذهبت عن دنيانا قبل خمسة أشهر من عودتي إليها، خمسة أشهر لا غير.

وصلت حاصبيا ولم يكن في نيّتي دخول المنزل قبل زيارة إلى خلوات البياضة. وعندما عدت قبّلت حجارة البيت علّني أحس بحرارة والدتي. طلبت السماح وتوسّلت، ويقيني أنني لن أعرف راحة في الحريّة بعد رحيل أمّي. فتشت عنها في زوايا البيت، حقًّا فعلت! وغمرتني الذكريات الطيبة للزوايا الدافئة حيث كانت تحضننا وتطعمنا.

لم أعرف على من أسلّم ولا كيف أتوجّه. وقد سمعت أحدهم

يقول: ليك يا حرام كيف ضايع مش عارف يروح شمال ولا يمين. فكان أول انطباع عني بعد ثلاثة عشر عامًا من السجن، أنني مجنون.

تضايقت من عجقة الناس وزحمتهم، وقد زاد من معاناتي قلّة النوم وتعب الأعصاب. فحضّتني زوجتي على العودة إلى بيروت وحدي علّني أجد بعض الراحة والسكينة، ففعلت.

وصل شقيقي من السفر بعد إطلاقي بأسبوع. قبّلت يده، وهو الأخ الأكبر، عربون محبّة وتقدير لما بذل من جهود للحفاظ على عائلتي. فأخبرني عن عذاباته وما تكبّد من عناء ليصل إليّ، تلاشت معها شيئًا فشيئًا آلام الملامة والحزن لتلامس التعاطف. فقد عرفت ما له من معارف وصلات حميدة داخل سورية، ومع ذلك لم يزرني يومًا. فهمت بعدها أنه طرق باب الجميع من وزير الدفاع اللبناني السيد محسن دلول الذي حمّله رسالة إلى آمر السجن في تدمر، إلى مصطفى طلاس فعبد الحليم خدام، ورؤساء المخابرات في سورية. أما رئيس فرع التحقيق كمال يوسف فلم يجد اسمي في لوائح المسلخ، وكيف يفعل إذا كنا كلنا مدرجين على شكل أرقام؟!

ولائحة النفي والتهرّب تطول، فيما قصّرت من عمري وعمر أهلي ممهّدة الطريق أمام فصول لا تنتهي من الخيبة والقهر.

ومرة قابل عقيدًا في فرع فلسطين ويدعى منير الأبرص. وقبل أن يراه رمى به جندي في أحد المكاتب ومنعه من الحراك مدّعيًا أنها الأوامر. وبعد ثلاث ساعات من التوقيف جاء العقيد متأسفًا لتصرّف الجندي، ثم فسّر لأخي أنه لن يتمكن من زيارتي.

وأخبرني كيف أوقفته هو وشقيقتي المخابرات السورية على حاجز كفرمشكي وهي ضيعة لبنانية كان يقع ضمنها الحاجز الأول للاستخبارات بعد الحاجز الإسرائيلي. وساقوهما إلى عنجر فدولبوه وهددوا بالمسّ بشرف أختي بعد أن أوسعوهما ضربًا. رموا بهما في زنزانة في عنجر. ولم يفرج عنهما إلا بعد تدخلات سياسية ومرجع ديني كبير.

مرة أخرى، لعنة الله عليهم...

بيضاء في الأصل

«أيّها...،

حَلَلْتُم أهْلاً ونَزِلْتُم سَهْلاً في مثواكم الأخير.

هنا لا ينتظرُكم من شيء سوى الموت البَطيء كالكلاب والبهائم.

هنا جَهَنّمُ الحمراءُ التي حَدَّثَتْكُم عنها الأديانُ والرسالات.

لا رحمةَ هنا تُرَجّونَها، ولا رأفة... هنا تدمر، ولا ربَّ أعلى لكم إياي...».

(من خطاب الاستقبال في سجن تدمر ـ بتصرّف)

ISBN 978-9953-11-002-8